الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة قاصدي مرباح ورقلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

أدب الغربة من خلال كتاب أدب الغرباء

لأبي الفرج الأصفهاني

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالبين:

- الأزهاري خراز
- لغويطر وهيبة

إشراف :أ.د عمر بن طرية

أعضاء لجنة المناقشة:

	جامعة قاصدي مرباح ورقلة	رئيساً.
أ.د عمر بن طرية	جامعة قاصدي مرباح ورقلة	مشرفاً.
د. فائزة زيتوني	جامعة قاصدي مرباح ورقلة	مناقشاً.

السنة الجامعية1440-1441هـ/ 2019 - 2020م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة قاصدي مرباح ورقلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

أدب الغربة من خلال كتاب أدب الغرباء

لأبي الفرج الأصفهاني

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالبين:

- الأزهاري خراز
- لغويطر وهيبة

إشراف :أ.د عمر بن طرية

أعضاء لجنة المناقشة:

	جامعة قاصدي مرباح ورقلة	رئيساً.
أ.د عمر بن طرية	جامعة قاصدي مرباح ورقلة	مشرفاً.
د. فائزة زيتوني	جامعة قاصدي مرباح ورقلة	مناقشاً.

السنة الجامعية1440-1441هـ/ 2019 - 2020م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى والدي الذي صعدت روحه إلى بارئها قبل أن تستوي ثمرة غرسه رحمه الله ، إلى التي ذرفت دموعا غزارا كلما أزف الفراق أمي الغالية في أثواب حزنها ، إلى قرة عيني التي انتظرت بشغف ولهف تحقيق تطلعاتي (أمي الحنون) ، إلى من رباني وصانع أفكاري وأفراحي أبي الكريم أطال الله في عمره وأبقاه ذخرا.

إلى زوجي الطاهرة الصبورة الوفية التي وفرت لي الوسائل التي مكنتني من مواصلة مسيرة العلمية.

إلى الذين تألموا لآلامي وشدوا لشدوي إخوتي وأخواتي وأقاربي الأعزاء الذين لايتسع المكان لذكرهم جميعا: (محمد ، سمير ، رابح ، زين العابدين خديجة ، عبد الرزاق ، سمية ، محمد تاج الدين ، نجلاء ، فاطمة ،ورزان ، روميسة ...) والآخرون والأخريات .

إلى أستاذي اللذين راعيا أفكاري وتعاهداني نصحا ودعما الأستاذ " عبد المجيد مردف ، والأستاذ عمر بن طرية.

إلى من استقرا في سويداء القلب : سامية ومبروك ، إلى من تعاهدوني طفلا وشابا وطالبا : أساتذتي الأجلاء من قاسموني مقاعد الدراسة من الطلبة والزملاء والخلان .

مقدمة

مقدمة:

خلد الكثير من الأدباء والمفكرين مآثرهم بترك بصماتهم موظفين فنا من الفنون، أو جنسا من الأجناس الأدبية كنحت التماثيل ، أو رسم لوحة من اللوحات ، وهناك من اختار القلم والكتابة كوسيلة للتعبير، والأدب واحد من ضمن هذه الوسائل التي اختارها المغتربون للتعبير عن ذواتهم، وما يخالجهم حتى سمي هذا الأدب بأدب الغرباء.

كما عدّ **أبو الفرج الأصفهاني** من بين الذين ألفوا في هذا الباب ، والذي عنون مؤلفه **بأدب الغرباء** وهو كتاب نادر حيث تخصص في جمع الأخبار، والأشعار، خلافا لما نجده في مؤلفات أخرى مفرقة بين الكتب تعرض للعواطف الإنسانية التي تثيرها الغربة ، أو الفراق من حنين، ولوعة، وشكوى، عذاب، تلهف ، وأمان مسطرة في بلدان الدنيا المتباعدة على الحيطان والجدران. والذي هو محور دراستنا.

وسمت هذه الدراسة بـــ: **أدب الغربة وخصائصه من خلال كتاب أدب الغرباء لأبي الفرج الأصفهاني.**

إشكالية الدراسة:

ما خصائص أدب الغرباء وقيمته في الأدب العربي القديم ؟

التساؤلات:

- ما هي علاقة الغربة بالأدب؟
- ما هو الأثر الذي خلفته الغربة في الأدب؟
- ما هي أهم خصائص أدب الغربة؟

وكل هذه التساؤلات حاولنا- فيما يبدو- الإجابة عنها من خلال هذه الدراسة وننطلق بداية من البحث في المحرك الرئيس لهذه الدراسة ،بمعنى:

الدافع الذاتي:

كون الموضوع لافتا ويشد الانتباه، وكذا جانب الميول إلى هذا النوع من المواضيع.

الدوافع الموضوعية:

أولا: تسليط الضوء على التراث المنسي و المغمور.

ثانيا: إبراز مكانة الكاتب وأهمية الكتاب.

ثالثا: تعريف الأجيال بالكتاب و خاصة ممن لم يعاصروه.

رابعا: قلة البحوث في كتاب الغرباء لأبي الفرج الأصفهاني.

خامسا: التعريف بهذا النوع من الأدب.

سادسا: إبراز أهمية ومكانة أدب الغرباء.

جاءت الدراسة **في مقدمة ، ومدخل ، وفصلين ، وخاتمة.**

تناول **المدخل** حديثا عن الغربة كظاهرة إنسانية.

أما الفصل الأول عالج ما تعلق بأدب الغربة قديما وحديثا من مفهوم ، و نشأة، وتطور، وخصائص مع ذكر بعض النماذج.

أما الفصل الثاني جاء تطبيقيا أبرزنا من خلاله التعريف بالمؤلف والكتاب. وكذا خصائص أدب الغرباء.

أما الخاتمة: فتضمنت أهم النتائج المتوصل إليها.

المنهج و الأدوات:

اعتمدت الدراسة على **المنهج التكاملي** والذي يتألف من مناهج عدة فأفدت من آلية الوصف و التحليل التي تعنى بوصف الظاهرة الأدبية وتصنيفها، وتحليل مراميها، كما استعنت بالمنهج الاستقرائي في الربط بين بعض المعلومات والوصول إلى استنتاجات مبنية عليها، فضلا عن المنهج النفسي الذي يعين على الكشف عن طبائع نفوس الغرباء، وبواعث حنينهم إلى الوطن، والحبيبة، والأهل ،والذكرى.

والمنهج التاريخي بالإضافة إلى المنهج الاجتماعي.

من أهداف الدراسة:

- إبراز خصائص أدب الغرباء
- ماذا أضاف أدب الغرباء للأدب العربي؟
- إخراج كتاب أدب الغرباء لأبي الفرج الأصفهاني من ذاكرة النسيان.

الدراسات السابقة:

من بين أهم الدراسات التي تعرضت لهذا الكتاب نجد:

نحيب الذات و إشراقات الفن في أدب الغرباء للأصفهاني لمومنة حمزة عبد الرحمان

المصادر و المراجع:

- كتاب أدب الغرباء لأبي الفرج الأصفهاني
- نحيب الذات وإشراقات الفن في أدب الغرباء للأصفهاني لعبد الزهرة لازم شباري الماحي 2018
- أبو الفرج الأصفهاني عصره سيرة حياته ومؤلفاته لحسين عاصي 1993

- تحول المثال دراسة لظاهرة الاغتراب صالح زامل 2003
- ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة لعاطف العراقي

الصعوبات والعقبات التي واجهتنا أثناء الدراسة:

فقدان الكتاب وندرة توفره إلا بصيغة pdf.

قلة الدراسات حول الكتاب.

وفي النهاية لا يسعنا إلا أن نتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ الدكتور عمر بن طرية على ما قدمه من توجيهات، ونصائح كان لها بالغ الأثر في مسار هذه الدراسة، والشكر موصول إلى كل من قدم لنا يد العون من قريب، أو بعيد.

غمرة في 26 جوان 2020

مدخل

الغربة ظاهرة إنسانية

مدخل:

الغربة ظاهرة إنسانية لا تتولد من الجزئيات والتفاصيل، وإن كانت تسهم في بلورتها،بل تتولد من علاقة التأزم القائمة بين الأديب والكون المحيط به، فالغريب يبدو مثل بقعة أرض منقولة بترابها، ومائها، وشجرها، وطيرها من مكان إلى مكان آخر، بقعة منكمشة على جذورها وذكرياتها، بقعة تقدس نفسها، بهذا المعنى تفسر الغربة عن الوطن، لما في ذلك من شدة التعلق به، فالغريب ينقل مع غربته الأمكنة التي عايشها، ليروي في غربته ظمأ الشوق والحنين إلى وطنه المعشوق."[1]

وبنشوء علاقة تأزم بين الأديب والكون المحيط به نتيجة الغربة والتي يترجمها الحزن وفي بعض الأحيان ، والتذمر والإحباط، لأنها تجسد الانهيار الذي يعجز الأديب عن التحكم فيه. وفي هذا ما يعطيها قيمة ودلالة ومغزى درجة الاحتذاء بها كغيرها من تجارب الأنبياء والرسل، الذين عانوا في سبيل تبليغ الدعوة وإن ما يهم في ظاهرة الغربة هو حال الإنسان و الموقف الذي يتخذه تجاه الحوادث والخطوات التي تعترض سبيله، انطلاقا من صورة القدرة، أو المجهول، الذي لا إرادة له."[2]

وما لبثت تتفاقم ويتعاظم أثرها كلما ازداد ضغط ما تخلفه الحضارة المادية على النفس البشرية، وهي ليست بالظاهرة المستجدة، بل عايشها العديد من المجتمعات عبر أزمنة مختلفة و إن اختلف المصطلح، ولم يتبوأ مفهومه بالمعنى الحديث وأبعاده الفلسفية حيث يرى "فروم" أن القضايا الإنسانية المختلفة، كالحب، و الحرية، والقلق....الخ.هي جزء لا يتجزأ عن البناء الاقتصادي، و السياسي، والثقافي للمجتمع، لذلك فإن تحقيق الحرية الإيجابية ، وقهر الغربة مرهون لديه بتحقيق التغيرات الاجتماعية، و الاقتصادية المناسبة التي تسمح للإنسان أن يعبر عنه بشكل تلقائي حر."[3]

ويتبلور مفهوم الغربة بمظاهر العزلة الناتجة عن إحساس الفرد بأن الآخرين لا يواكبونه فكريا، وعما يسود المجتمع من ثقافات مشوهة ، وتضليل سياسي، وتضارب في الآراء

[1]- يحي الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي ط1، عمان دارمجلاوي،2008م، ص9.
[2]- حمة دحماني، ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكرياء، رسالة ماجستير جامعة منتوري، الجزائر،2006م، ص25.
[3]- حماد،حسن محمد حسن، الاغتراب عند إيريك فروم، بيروت،المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر،1995، ص142.

والأفكار، والموضوعية الناتجة عن وعي الفرد بوجود الآخرين كشيء مستقل عن نفسه، أو تميزه في اختصاصه، أو تفرده بمجال معين، وبعبارة أخرى فإن الإنسان في العصر الحديث أصبح منفصلا، انفصالا حادا لم يسبق له مثيل، سواء عن الطبيعة، أو المجتمع، أو الدولة، أو الله، حتى نفسه و أفعاله...فلم يعد قادرا على إقامة الجسور التي تصل بينه وبين هذا الآخر المختلف المظاهر و المتعدد الأسماء وأصبح من ثم عاجزا عن تحقيق ذاته ووجوده على نحو شرعي أصيل."[1]

[1]- رجب، محمود، الاغتراب، سيرة ومصطلح، ط3 دار المعارف1119 كورنيش النيل – القاهرة1988 ص6.

الفصل الأول

ظاهرة أدب الغربة بين القديم والحديث

1. المبحث الأول : مفهوم أدب الغربة
2. المبحث الثاني : نشأته وتطـــوره
3. المبحث الثالث : خصائصه ونماذجه

المبحث الأول: مفهوم أدب الغربة

أ- الغربة لغة

غرب الغرب والمغرب بمعنى واحد. الغرب خلاف الشرق الغروب: غيوب الشمس. المغرب الذي يأخذ في ناحية المغرب. الغرب: الذهاب التنحي عن الناس و غربه: نحاه. الغربة، يقال: غرب في الأرض، وأغرب: إذا أمعن فيها، و نوى غربة: بعيدة، و غربة النوى: بعدها، النوى: المكان الذي تنوي أن تأتيه في سفرك، و دارهم غربة: نائبة، و اغرب القوم: انتووا، و شأو مغرب و مغرب: بعيد. و قالوا: هل أطرفتنا من مغربة خبر؟ أي هل من خبر جاء من بعد؟ و الغربة و الغرب : النزوح عن الوطن و الاغتراب عنه و التغريب: النفي عن البلد الذي وقعت الجناية فيه يقال :أغربته و غربته : إذا نحيته و أبعدته ؛ و التغرب : البعد .و الاغتراب و التغرب كذلك؛ تقول منه : تغرب و اغترب ، و قد غربه الدهر ؛ و رجل غرب و غريب :بعيد عن وطنه .

و في الحديث الشريف أن النبي (صلى الله عليه و آله و صحبه و سلم) سئل عن الغرباء، فقال الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي و في حديث آخر و من الغرباء قال "الذين يصلحون إذا فسد الناس" [1]. و أغرب الرجل : صار غريبا؛ و رجل غريب: ليس من القوم؛ و الغرباء : الأباعد؛ و الغريب : الغامض من الكلام و المغرب : المبعد في الكلام[2] وإذا تتبعنا معنى الغربة نجدها اشتقت من الجذر(غ ر ب) مثل تغرب واغتراب...، ونجد أن العرب استخدموها في لغتهم وشعرهم فقد ورد معنى الغربة في المعاجم العربية، والتي حمل من خلالها دلالة ترتبط بالمكان والانتقال منه. يذكر ابن منظور في لسان العرب معنى (غرب) (غ ر ب)[3]، أن الغرب: الذهاب والتنحي عن الناس، وغرب عنه يغرب غربا، وغرب

[1]- ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، القاهرة،1292ه، ط1،ج2، ص122.
[2]- مجلة التقني /المجلد السادس والعشرون/العدد السادس -2013.
[3]- ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، مادة غرب.

و أغرب، وأغربه، نحاه، والغربة والغرب: البعد والنوى، ويقال: أغربته وغربته وغربته إذا نحيته وأبعدته، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتغريب الزاني يحصن[1]، وهو نفيه عن البلاد، ونوى غربه: بعيدة، وغربة النوى: قال الشاعر أبو عبيد:

وَشطّ وَلْى النّوى إنّ الْنّوى قذفُ تَيّاحةُ غَرْبةُ بالْدار أَحْياناً[2]

و نقول دارهم غربة: أي نائبة والنوى: المكان الذي تنوي أن تأتيه في سفرك. وشأو مغرب، ومغرب بفتح الراء: بعيد قال الكميت:

أعهدك من أولى الشبيبة تطلب على دبر هيهات شأو مغرب[3]

والتغريب: النفي عن البلد و التغريب: البعد، وفي الحديث: أن رجلا قال له: إن امرأتي لا تريد لامس، قال غربها، أي أبعدها، يريد الطلاق. والغربة والغرب: النزوح عن الوطن كما ذكر الزبيدي في تاج العروس: التغريب: الذهاب بالفتح، والغرب: النوى والبعد وأيضا الغرب والغربة: النزوح عن الوطن، والتغريب النفي عن البلد[4] كذلك نجد الجواهري في الصحاح يشير إلى هذا المعنى بقوله: التغريب: النفي عن البلاد، وأيضا غرب: بعد، واغرب عني تباعد[5] وهناك اتفاق في المعنى اللغوي لكل من غربة واغتراب وما اشتق منهما، وجاءت كلها معنى واحد هو الذهاب والتنحي. والغربة تكون في:

1- غربة الذات، والحنين إلى الماضي، وتغير الدهر.

2- البعد عن الأهل و الوطن، والنفي عن البلد – غربة قهر – قسرية.

3- غربة معنوية تكون بالخروج عن مبادئ الناس و تقاليدهم.

[1]- صحيح البخاري، شرح فتح الباري، كتاب الحدود، باب:البكران يجلدان ونيفيان، (162/12)، رقم (6832).
[2]- قاسم أحمد عقلان، مقامات الولاية وأحوال الأولياء، ط1 دار زهران، عمان 2009م، ص11.
[3]- أبو محمد بن القاسم ابن الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، علق علي، ديحي مراد، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان،2004، ص146.
[4]- الزبيدي، السيد محمد مرتضى، تاج العروس من جوهر القاموس، مادة غرب، المطبعة الخيرية، مصر،1306ه مح1، ص404،412.
[5]- الجواهري، إسماعيل بن حماد:الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، مادة غرب.

والغربة عاطفة تستولي على المرء و بخاصة الأدباء والفنانين، مما يجعلهم يعيشون في قلق وكآبة لشعورهم بالبعد عما يهوون أو يرغبون فيه، وقد تبرز هذه العاطفة في شكلين اثنين:

1- في حالة الابتعاد عن الديار و الأحبة.

2- وفي حالة الشعور بأن العالم كله هو سجن أقحم فيه الفنان ، أو الأديب مرغما، فكبله بقيوده، وغمره بشروره وآلامه، فهو يحس بأنه غريب بين مواطنيه و أهله، وهو أبد تألق إلى عالم آخر خير من هذا، مؤمن بوجوده، و بأنه ملاق فيه كل ما يحقق رغباته الظمأى على الأرض[1]و الغربة شعور ينتاب فئة الأدباء عندما تتعارض مشاعرهم و أفكارهم[2] وعلى الرغم من كثرة وتنوع استعمالات المصطلح، إلا أنه تبقى صفات مشتركة تجمع بينها مثل الانسلاخ عن المجتمع، والعزلة ، أو الانعزال، والعجز عن التلاؤم، والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة في المجتمع، واللامبالاة، وعدم الشعور بالانتماء، بل انعدام الشعور بمغزى الحياة[3]

وجاء في موسوعة لاروس:

اغتراب: باع- ملكية شيء إلى آخر.

الاغتراب: نقل ملكية، يفعله شخص إلى آخر.

الابتعاد عن النفس-النفور: التسبب في اغتراب القلوب.

اغتراب عقلي: استحالة ممارسة وجود طبيعي أو المشاركة في الحياة الاجتماعية.

المغترب: المغترب عقليا تستلزم حالته الحجز[4] وقد قال عند ابن دراج القسطلي عندما سئل ما الغبطة ؟ قال الكفاية مع لزوم الأوطان، والجلوس مع الأخوات، قيل له فما الذلة؟ قال التنقل في البلدان والتنحي عن الأوطان[1].

[1]- عبد النور، جبور:المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 1984م، ص186.

[2]- بركة بسام، يعقوب أميل، مي شيخا، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، ط1987، ص140.

[3]- أبو زيد أحمد، الاغتراب مجلة عالم الفكر،ع1، مج10،1979، ص4.ب

[4]- GRANDLAROUSSE ENCYLOPEDIQVEP.248-250

ب- الغربة في اللغة الأجنبية

نبين في هذا العنصر مفهوم الاغتراب في كل من اللغتين الفرنسية والانجليزية بالإضافة إلى اللغة الألمانية. اشتقت الكلمة الانجليزية « Alienation و نظيرتها الفرنسية Aliénation الدالة على ، الاغتراب من الكلمة اللاتينية "Alenatio" وهي اسم يستمد معناه من الفعل اللاتيني"Alienare" بمعنى ينقل، أو يحول، أو يسلم، أو يبتعد، وهذا الفعل بدوره مأخوذ من كلمة لاتينية أخرى وهي "Alienus" بمعنى الانتماء إلى الآخر وهذه الأخرى مشتقة في نهاية الأمر من كلمة" alivs" بمعنى" الآخر "أو "آخر[2]

-وكما أن أحد استخدامات هذه الكلمة يرتبط بما يتعلّق بالملكية أيضا ، أي نقل ملكية شيء ما إلى شخص آخر بمعنى أنّ ما هو ملك لي ، و ينتمي إليّ يُصبح ملكا لغيري، غريبا عنّي، إنّ المقابل للكلمة العربية الاغتراب هو الكلمة الانجليزية« Alienation الكلمة الفرنسية Aliénation و في الألمانية " Entfremdung وقد اشتقت كل من الكلمة الانجليزية و " الفرنسية أصلها من الكلمة الآتينيةAliénation " و هي اسم مستمد من الاسم الآتيني Alienare" و الذي يعني نقل ملكية شيء ما إلى آخر[3]. أو يعني الانتزاع ، أو الإزالة، و هذا مستمد بدوره من كلمة أخرى هي« " Alienus" أي الانتماء إلى شخص آخر، أو التعلق به[4] بمعنى أن أنتمي إلى غيري وأتعلق به وأصبح رهن إرادته، فالمصطلح الألماني يدل في معناه المباشر على العملية التي يصبح فيها الشخص غريبا.

كما أخذ المصطلح في العصور الوسطى معنى الفعل الذي يفيد قيام شخص ما بتغريب شيء يمتلكه، فا "Alien" تعني الانتماء والتعلق بالآخر وبالتالي السطو والسلب[5]وانطلاقا من هذه الأقوال نلاحظ أنّ استعمالات الاغتراب تتعدد لذلك نجد معناه يختلف في

---

[1]- عمر بن بحر الجاحظ الحنين إلى الأوطان، ط2، دائر الرائد العربي 1982م، ص38-39.

[2]- سهير عبد السلام: مفهوم الاغتراب عند هاربرت ماركيوز، دار المعرفة الجامعية، ط، مصر،2003ص21.

[3]- حسن حماد، الإنسان المغترب عند اريك فروم، دار الكلمة، ط، القاهرة، مصر،2005،ص61.

[4]- يحي عبد الله: الاغتراب، دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلول الروائية، دار فارس للنشر و التوزيع،ط1، عمان ،2005 ،ص21.

[5]- صابر نور الدين،الاغتراب بين القيمة المعرفية والقيمة الجمالية،مجلة الموقف الأدبي،اتحاد الكتاب العربي، دمشق سوريا ،ع322،2000،ص328.

القانون والطب والأدب «يعني في الطب الاضطراب العقلي الذي يجعل الإنسان غريبا عن ذاته ومجتمعه، أما في الفلسفة فتشير إلى غربة الإنسان عن جوهره»[1].

إنّ جميع المعاني التي تعبر عن مصطلح الاغتراب تشترك في معنى واحد وهو الانفصال والانسلاخ، لكن هذا الانفصال قد يكون عن شيء ما كالملكية، وقد يكون عن الآخرين ، أو عن المجتمع.

وقال عنها الجاحظ أنها غرس زايل أرضه، وفقده شربه، فهو دواء لا يثمر، وذو بقل لا ينظر[2].

ج- الغربة اصطلاحا: هي النزوح و البعد عن الأوطان لأسباب سياسية ،أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو دعائية[3].

د- الغربة عند الصوفية:

ترك المألوفات، ومغادرة العادات، والانقطاع، والعزلة قال ابن عطاء الله في لطائف المنن: الزاهد غريب في الدنيا، لأن الآخرة وطنه، والعارف غريب في الآخرة فإن كشف له عن صفات معروفة فأخذ قلبه فيما هناك فصار غريبا في الآخرة ؛لأن سره مع الله.

قال: (غربة عن الأوطان، فالغربة عن الأوطان من أول حقيقة القصد، فآفة غربة الأوطان بمحبة الإخوان وعاقبة العار).

وقال الكيلاني: وسمي الصوفية بالغرباء لخروجهم عن الأوطان والغربة ثلاث مقامات، غربة عن الأوطان، وغربة عن الأحوال، وغربة عن الحق.فالغربة عن الأوطان من أول القصد، وعن الأحوال من حقيقة الانفراد، وعن الحق من حقيقة الدهشة في المعرفة. وآفة

[1]- سناء خضر، النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين، دار الوفاء لطباعة والنشر الإسكندرية، ط2000 ص98.

[2]- رسالة في الحنين في الأوطان، تحقيق الشيخ الطاهر الجزائري، ط2، المطبعة السلفية، القاهرة1351ه.

[3]- رجب، محمود: الاغتراب،منشأة المعارف المصرية، بالاسكندرية1978، ج1، ص43.

غربة الأحوال إتباع الرخصة في مخالطة الأحوال، وآفة الغربة عن الحق الإشارة إلى حقيقة المعرفة.[1]

وأشار إليها أبو حيان التوحيدي الغريب من إن حضر كان غريبا، وإن غاب كان حاضرا. الغريب من إن رأيته لم تعرفه، وإن لم تره لم تستعرفه، وقال أغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه، وأبعد البعداء من كان بعيدا في محل قربه.[2]

2. المبحث الثاني: نشأته وتطوره

وجدت الغربة من أول خلق للإنسان سيدنا آدم عليه السلام، حينما فارق موطنه الجنة وهبط غريبا إلى الأرض، ليقبع الإحساس بالتلازم بين الوطن والجنة في أعماق الشعور لدى بنيه، ولتكون الغربة قدرا محتوما عليهم، وقافلة الرسالات السماوية حافلة بالغرباء من أنبياء الله حيث كان التغريب سلاحا مشهورا في وجوههم استخدمه أقوامهم بهدف تثنيتهم عن عزيمتهم قال تعالى: << وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ >>[3]. وربما كانت الغربة القرار الأخير من أنبياء الله بعد عناد أقوامهم، فقد قرر أبو أنبياء إبراهيم عليه السلام الهجرة إلى الله. قال تعالى: << فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ >>[4] وقال كذلك << وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ >>[5] وقد عد الإمام القرطبي هذه الآية أصلا في الغربة.[6] وكما أنه تعد ظاهرة الاغتراب الداخلي التي عاشها الأنبياء والتي فرضت عليهم هي ضرورة من ضرورات الرسالة، فقد اشتكى نوح اغترابه بين قومه إلى ربه وسخريتهم منه، وكذلك سيدنا يوسف عليه السلام وهو في السجن عاش غربة داخلية وأخرى خارجية، وأين نحن من غربة سيدنا يونس

[1]- https://www.nafahat-tarik.com/2018/08/Al-Ghorba-Sufism.html

[2]- أبوحيان التوحيدي، الإشارات الإلهية، ت خميس حسن، دار آفاق للنشر و التوزيع،1987، ص79.

[3]- إبراهيم الآية 13

[4]- العنكبوت. الآية 26

[5]- الصافات الآية 99

[6]- http//www.altafsir.cqmرقم الحديث،1/3580.

عليه السلام ؟ وهو غريب في بطن الحوت لتحط بنا الرحلة عند الغريب الأكبر سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم الذي صرح لأتباعه بأن الغربة قدر محتوم عليهم من بداية رسالة الإسلام إلى انتقالهم إلى جوار ربهم، وبشر الغرباء من أتباعه بالجنة، فيما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة –رضي الله عنه–أن النبي صلى الله عليه وسلم.قال: << بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيباً وَسَيَعُودُ غَرِيباً كَمَا بدَأَ غَرِيباً، فَطُوبى لِلْغُرَبَاءِ >>[1]ويظل هاجس الغربة يراود رسولنا الكريم من بداية بعثته، وهو المحب لوطنه، ويظهر ذلك في حواره مع ورقة بن نوفل الذي أخبره بأنه مفارق لوطنه فقال له ورقة يا ابن أختي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى، يا ليتني فيها جدعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مخرجي هم ؟ قال نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا.

وإذا عدنا بالمفهوم وانطلاقا بالضبط من الجاهلية نجده قد قصد به النوى والبعد عن الوطن أودع الشعراء الجاهليون شعرهم خلاصة ذكرياتهم عن أوطانهم، وحنينهم إليها، فالعربي بطبيعته دائم التنقل والترحل سعيا وراء الماء والكلأ، وقد جسد الشاعر الجاهلي هذا المفهوم في مطلع قصائده، فنراه يحن إلى ديار الأحبة الراحلين، ثم يعبر عما يجيش في نفسه من الإحساس بالفرقة ، و البعاد، كما يجسد الوحشة التي تكتنف نفسه، ذاكرا الأمل الضائع، والماضي الذي ابتلعه العدم، وقد يتغرب الشاعر ليجد سلوى عن غربته ، فيكون قد قابل الغربة بغربة أخرى لذلك كانت مطلع قصائد شعراء الجاهلية في كثير من الأحيان، تستفتح بالمقدمات الطللية، التي تترجم الإحساس بالغربة بعد الأنس، وحنينا طويلا إلى ديار

[1]- حديث دينى الموقع الرسمي لسماحة الشيخ الإمام ابن باز.و الآجري في صفة الغرباء رقم 5 ص21.

الأحبة الراحلين، ويجسد ذلك بصورة واضحة الشاعر الجاهلي عبيد بن الأبرص في مقدمة معلقته[1]

أَقْفَرَ منْ أَهْله ملْحُوبُ	**فَالقُطَبيّاتُ فَالذّنُـــوبُ**
وَبُدّلَت منهم وُحـــوشاً	**وَغَيّرَت حالَها الخُطوبُ**

وقد امتدت هذه الروح وهذه الرؤية لمفهوم الغرب شعرا ونثرا قديما وحديثا فمن الشعر نجد مالك بن الريب يشكو الغربة والبعاد، ويشعر بالشوق والحنين إلى دياره و أوطانه، وحين شارف على الموت لا يتمنى شيئا في تلك اللحظات الحرجة إلا أن يزور بلاد، وينام فيها ليلة، ينظر إلى نفسه غريبا وحيدا فيبكي على نفسه، ويحن إلى الذين كانوا يشفقون عليه وهن أمه وأخواته وخالته اللواتي يظن أنهن لو رأين حالته لبكين عليه، وكذلك زوجته التي تهيج البواكي فحنينه لهن جميعا.

يقولون لا تَبْعُدْ وهُو يدْفنونني وأيْنَ مَكانُ البُعْد إلاّ مَكانيَا[2]

وبانتقالنا إلى العصر الأموي وبالضبط في الأندلس نجد مفهوم الغربة الذي قصد به الابتعاد عن البلد الأم، ثم تطور وازدهر في العصور اللاحقة، فإن كان المشارقة لهم فضل السبق في هذا الموضوع، فإن الأندلسيين قد لحقوا بهم، وتوسعوا فيه أكثر منهم من حيث الوفرة، أو قوة العاطفة، ولعل السبب في ذلك مرده إلى الأحداث السياسية في الأندلس، وسقوط أغلب المدن بيد ملوك الإسبان، مما أنعش ظاهرة الغربة وغداها وبسب سقوط المدن بيد النصارى، الأمر الذي دفعهم إلى الهجرة من الديار، وترك أوطانهم، وفراق أهليهم، وأحبابهم إلى غير رجعة، فذاقوا مرارة الضياع ، و التشتت، فمنهم من نزل المغرب، ومنهم من رحل إلى المشرق، وكانت تجربة الغربة عميقة في نفوسهم، فنظموا أشعارا باكية من شدة

[1]- ينظر: الزوزاني أبو عبد الله بن أحمد،شرح المعلقات العشر، دار الجيل لنشر و التوزيع، بيروت 1972ط2، ص167.
[2]- ينظر: أبو زيد القريشي، جمهرة أشعار العرب،تحقيق محمد علي الهاشمي دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع لبنان 1999/1/1،ص269-271.

اللوعة و الحسرة، و الشوق، و المعاناة، سواء أكانت غربتهم بالانتقال من الغرب إلى الشرق، أم بالانتقال لسبب، أو لأخر من مدينة إلى مدينة بالأندلس[1].

ولعل من الأسباب التي كانت وراء توسع الأندلس الملحوظ في شعر الغربة عنه لدى المشارقة طلبا للعلم، وخاصة أن من رحلوا من الأندلسيين كانوا من الكتاب والشعراء، إضافة إلى ظروف الأندلس التي كانت في حالة استنفار كونها ثغرا إسلاميا متاخما للعدو الإسباني، مما دفعهم للمشاركة في الجهاد[2] إضافة إلى بعد هذا القطر الأندلسي عن المشرق مما يعني أن يقضي المرتحل غيبة طويلة عن الوطن بغض النظر عن سبب الرحلة هل هي بقصد زيارة الديار الحجازية للحج و العمرة، أم طلب العلم، أم لتجارة مما يشعل في نفوسهم مشاعر الشوق و الحنين إليه، فكان هذا سببا في توسعهم في هذا الفن أكثر من غيرهم حتى خلفوا هذا الفيض الغزير والذي تقدموا من خلاله على المشارقة في شعر الغربة.

وقد عانى ابن زريق البغدادي من غربته في بلاد الأندلس بعد أن ترك بغداد طالبا للرزق ومات غريبا فيها بعد أن ترك قصيدة عدت من عيون الشعر العربي يقول فيها مخاطبا زوجته بعد أن ألم به المرض و أقعده وشعر بدنو أجله:

لا تَعذّليه فَإنّ العدلَ يُؤلمُهُ قَد قَلت حَقاَ، وَلَكن لَيسَ يَسَمُعهُ[3]

أما في العصر الأموي فقد طرأ تطورا على شعر الغربة حيث ظهرت ألوان جديدة منها: غربة النفي و السجن وذلك بسب اضطراب الأوضاع السياسة في الدولة الأموية، فقد أصبح النفي سلاحا حادا في يد حكام بني أمية تجاه خصومها ومعارضيها مما يعني غربة من وقع عليه حكم النفي ومن بين هؤلاء الشعراء أبو قطيفة حيث نفي من المدينة إلى الشام[4].

[1]- ينظر: عتيق عبد العزيز، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية الطباعة والنشر،1976، بيروت، ص273.
[2]- ينظر: الداية محمد رضوان، في الأدب الأندلسي، دار الفكر، سورية2000 ، ص131.
[3]- ينظر: حسين المرصفي، الوسيلة الأدبية،ج2، إلى العلوم العربية حققه عبد العزيز الدسوقي ، الهيئة المصرية، العامة للكتب1875م ص165-166.
[4]- ينظر: الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتب المصرية القاهرة1945، ج1، ص28-39.

أُقِرَّ مِنْي السّلامَ إنَّ جِئْتِ قَوْمِيَّ وَقَلِيلٌ لِهُمْ لدُي السّلامِ

كما استعمل حكام بني أمية سلاحا آخر للتغريب غير النفي ألا وهو السجن فالشاعر العرجى ممن وقع عليه هذا الحكم حيث حبس لمدة تسع سنوات ومن سجنه قال:[1]

أَضاعُونيْ وَأيّ فَتى أَضاعُوا لِيوم كرِيهةٍ وَسِدَادِ ثَغرِ

أما في العصر العباسي فقد تنوعت أشكال الغربة وذلك بسب تطور الأوضاع السياسية، حيث نكل العباسيون بإتباع الدولة الأموية، ولعل خير من مثل ذلك الشاعر المتنبي[2]:

مَا مُقامي بأرْضِ نخْلّة إلاّ كمُقام المَسيح بينَ اليّهُود
أنَا في أُمّةٍ تدارَكَهَا اللهُ غَريبٌ كصَالح في ثُمودِ

وكذلك غربة أبي فراس الحمداني وهو في سجن الروم:

أَقولُ وَقَد ناحَت بِقُربي حَمامَةُ أَيا جارَتا هل تَشعُرينَ بِحالي؟[3]

واستمر موضوع الغرب حاضرا لدى الأدباء العرب في العصر الحديث، بالرغم من الظروف المأسوية التي حصلت مع تراجع الأمة العربية، وافتقاده الأمة إلى الكثير من بريقها ومكانتها بين أمم العالم في الفترة الممتدة من معركة مرج دائق[4] سنة 1516 بين المماليك و العثمانيين.

تراجع الشعر كثيرا، وفقد بريقه وتألقه الذي علا شأنه في العصور السالفة، وظهر ما يسمى بعصر الانحطاط الأدبي الذي جثم على صدر الأمة قرابة أربعة قرون، حتى ظهرت طائفة من أبناء هذه الأمة حاولت جاهدة أن تعيد الحياة إلى أوصالها، وتزيح الجمود المهيمن، وتعيد لها المجد بعد عقود من الذل والهوان، وقد عاشت هذه الطائفة ظروفا من

[1]- ينظر: المرجع نفسه، ص413.
[2]- المتنبي، أبو الطيب، ديوان المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، مصر،ج1، ص314-319.
[3]- أبو فراس، ديوان أبي فراس دار الكتاب العربي باب اللام.
[4]- عباس حسن الحاوي، مجلة مرج أوراق ثقافية، مرج دائق، الغربة في الشعر العربي 20-02-2020الموقع 9416 - issn2663.

الغربة و الاغتراب، خصوصا مع شيوع أفكار، وفلسفات غربية بعيدة كل البعد عن الأمة العربية بداعي حملات الغرب على الشرق "كذلك عاشت هذه الطائفة عيش الغرباء في عالم سيطرت عليه المادة و الفكر الغربي."[1]

إلى جانب الأدباء الذين تعرضوا إلى النفي و التهجير عن أوطانهم قسرا مثل محمود سامي البارودي، و أحمد شوقي اللذان نفاهما الإنجليز، فالأول بقي في مدينة كولومبو أكثر من سبعة عشر عاما يعاني الوحشة ، و الغربة، و كذلك بالنسبة لأحمد شوقي الذي نفي إلى إسبانيا هو الأخر كتب ما يسمى بالأندلسيات التي عزف فيها على وتر الغربة والاغتراب حال الأندلس و غربة الوطن في سينيته الشهيرة.

وسَلا مِصْر هَلْ سَلا القَلْبُ عَنْها أَوْ أَنسَا جُرْحَهُ الزّمانُ المُؤَسّي[2]

وكذلك نجد السياب من العمود إلى التفعيلة و الشعر الحر، و قد مثلت الغربة مادة أولية لأبياته خاصة عندما يتكلم عن الأم و هو الذي فقدها في صباه وبات يحلم بحضن الأم الذي لن يعود.

وكما أننا نسجل إحدى أبرز تجارب الغربة عند الشاعر محمود درويش و الذي اكتوى بنار الحب و الحنين إلى الوطن و الأهل لترحاله الدائم وابتعاده القسري عنهم و يرتبط الحنين ارتباطا وثيقا بالغربة في الشعر الفلسطيني عامة و في شعر درويش خاصة لطبيعة القضية الفلسطينية و ارتباطها بالأرض، لذلك انصبت دواوينه على معالجة القضية الجوهرية ألا وهي قضية الغربة و حنينه إلى أمه التي لم تطق الحياة بعد وفاته ورحلت بعد ثمانية أشهر[3]

[1]- ينظر: طاهر العتباني، مقال الغربة والاغتراب في الشعر العربي قديما وحديثا البحث 25-12-2018.

[2]- ينظر: طاهر العتباني، مقال الغربة والاغتراب في الشعر العربي قديما وحديثا البحث 25-12-2018.

[3]- ينظر: عيسى بلاطه، بدر شاكر السياب ، ط4-دار الشؤون-بغداد-1971، ص218-242.

ومثل درويش هناك الكثير من شعراء العصر الحديث كانت الغربة حاضرة في شعرهم مثل نزار قباني، و البياتي، و حاوي، و فدوى طوقان وغيرهم الكثير عبر عن الغربة النفسية و المادية التي تلازم الشاعر في سنين حياته، حتى صار الكلام عن الغربة أحد أهم المواضيع الرئيس في أدبنا العربي عليهم يلقون وصالا منشودا، أو يلفظون من صدورهم زفرات حرى تخرج معها لهيب الشوق، فقد كان أدبهم مرآة نفوسهم التي تعبر عن واقعهم و بيئتهم. ولأن الغربة رفيقة الأديب ظلت موضوعا يلازمه وسيبقى مدى بقاء الإنسان وبالموازاة عند الأدباء الغربيين فغدا موضوع الغربة لافت، إذ لجأ الأديب إلى نقل رؤيته، وأثر البيئة المحيطة به في بنياته النفسية و الفكرية، حتى أننا لا نجد عملا أدبيا عظيما، خاليا من ومضات الغربة، بدء بالنصوص الأولى عند اليونان، حيث أماطت "الإلياذة" و "الأدويسة" لهوميروس اللثام عن الغربة الإنسان، وضعفه أمام عوالم الطبيعة، مرورا بالراويات الخالدة والتي عكست الاغتراب في أعماق تجلياته، كما عند "هوجو" في البؤساء، أو بلزاك في الكوميديا الإلهية لدانتي الغيري، أو نجيب محفوظ في البداية والنهاية في أدبنا العربي وغيرها من الأعمال التي إن دلت على شيء فإنما تدل على حضور حس الغربة في الأدب حضورا عميقا. وكلما ازدادت التحولات الحضارية تعقيدا ازدادت الظاهرة تفاقما.[1]

ومن الأمثلة عن الغربة مما وصلنا من نثرنا نذكر تجربة أبي العلاء المعري في رسالة الغفران، فغربة المعري لم تنشأ من النزوح عن الوطن–وإن وقع شيء منه لديه–، ولكن نالت من الغربة الروحية والفكرية، بعبارة أخرى تحقيق الاتساق والانسجام بين ذاته و المجتمع الذي يعيش فيه مما دفعه إلى الاعتزال في بيته بعد أن كان العمى وسيلته إلى راحته المتمثلة في عدم رؤية الناس...فحياة المعري مكابدة، و مجاهدة، وشقاء، ومعاناة منذ كان في الثالثة من عمره، ثم بعد مفارقته البصر في الرابعة، ولم يدرك من الألوان إلا الأحمر بوصفه آخر ما رآه...وكلما امتد به العمر، وخبر أساليب العامة، والخاصة ازداد تمرده ومن

[1]- مجلة جامعة دمشق- المجلد26-العدد الثالث +الرابع2010ص291.

ثم اغترابه على تلك الأساليب التي اطمأن إليها الناس في صميم التصاقهم بالخداع والكذب، والزيف، والنفاق و...وكان منذ حداثته يسئ الظن بالناس، لا ينظر إليهم نظرة الرضا والطمأنينة، ويميل إلى الانقباض عنهم، وحببت إليه العزلة[1]، لهذا كان يحب الحياة ولم يكرهها يوما ما[2].

تركز الرسالة في بنيتها على المفارقة بين الجنة والنار بوصفها اغترابا مؤرقا لما وقع في الحياة الدنيا، لذا شرع المعري ينزل كل من أدخلهم الحياة الآخرة منزلته في الجنة ، أو في النار، وفي صميم ذلك يتناول المفارقة في حياة مواضع الشعراء والأدباء ويركز على التشخيص المثير والمدهش[3].ولما كان يحقر الرجاز لنفهم وضعهم في آخر الجنة تحقيرا لهم...أما المفارقة في علاقته بابن القارح فهي ذات تأثيرات اغترابية تصاعدية...ولاسيما حين يسخر منه بقوله :"الشيخ بالنحو أعلم من "سيبويه" وباللغة والعروض من الخليل[4]إن غربة بنية "رسالة الغفران" تنبثق من مشكلة التنافر بين أبي العلاء وابن القارح، لذا أدخله جنة الغفران، بعد أن ملأ نفسه بالحزن واليأس،...ومن هنا شرع المعري يدخل الشعراء الجنة ببعض أبيات قالوها، على الرغم من أن حياتهم امتلأت بالشر كالحطيئة...وكذا فعل مع بعض الأدباء و النحويين...[5]

3. المبحث الثالث: خصائصه ونماذجه

بابتعاد الأديب عن مسقط رأسه وذويه يحاول من خلال أدبه مواكبة ظروف بيئته، وحالته النفسية، ونستنبط ذلك من خلال استعراض الجوانب اللفظية والمعنوي، أو ما يسمى بالخصائص الفنية في نصوصه. فعند الشعراء نلمس طول أشعارهم التي أنشدت في المنفى

[1]- ينظر: كمال الدين ابن العديم، الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتحري عن أبي العلاء ،2011/3/5م، للمكتبة الشاملة ص18.
[2]- ينظر: طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف، 1974م- 137/2.
[3]- ينظر: المعري أبو العلاء، رسالة الغفران ،ت، عائشة ع الرحمان، دار الكتب المصرية، ط1، ص129-130.
[4]- ينظر: المرجع نفسه ص26.
[5]- حسين جمعة، الاغتراب في حياة المعري وأدبه، مجلة جامعة دمشق، المجلد27، العدد الأول +الثاني2011، ص67.

إلى جانب اتخاذ أساليب خاصة، وكذلك وحدة الموضوع، والتنوع، والصدق، والسهولة، والتكرار، وطول الأشعار، وتمثلها القصيدة الكلاسيكية الطويلة، ويعزى الطول في هذه القصائد كنمط شعري إلى تعاريج حال الشاعر في المنفى، أما المقطوعات الشعرية القصيرة فتكثر في الحالات المضنية ، والحالات العاطفية ، والمعنوية كالموضوعات التي تربطها أواصر بالحنين، والرثاء ، والزهد، والحكمة ، وما إلى ذلك.

أما الحديث عن البحور الشعرية التي لجأ إليها الشعراء فنجد الطويل، والبسيط ، والكامل، والوافر، والخفيف وتدل هذه الأوزان على تنوع الحالات النفسية ، وتناغم الأوزان.

أسلوب الحوار، وهو من الأساليب التي اختارها الغرباء للتعبير عن ذواتهم، فتارة يخاطبون الطبيعة، وأخرى يخاطبون فيها حيواننا مثلا.

كما نلمس توظيفهم أسلوب الاستفهام.

وحدة الموضوع والتي غالبا ما سجلت في أعمالهم الأدبية كغرباء إلى جانب عناصر أخرى كالصدق، والسهولة، والتكرار.

أما الجانب الموضوعاتي نسجل مشاعر الحب، الرثاء، الحنين، الفخر، الحماسة، إلى جانب الالتزام، والموضوعية.

ومن النماذج التي تتضمن هذه الخصائص نذكر ما قاله عنترة بن شداد:

هلْ غادرَ الشُّعراءُ منْ متردَّم	**أم هلْ عرفتَ الدارَ بعدَ توهمِ**
يا دارَ عَبلَةَ بِالجَواءِ تَكَلَّمي	**وَعَمي صَباحاً دارَ عَبلَةَ وَاسلَمي**
فَوَقَفتُ فيها ناقَتي وَكَأَنَّها	**فَدَنٌ لِأَقضِيَ حاجَةَ المُتَلَوِّمِ**
وَتَحُلُّ عَبلَةُ بِالجَواءِ وَأَهلُنا	**بِالحَزنِ فَالصَمّانِ فَالمُتَثَلَّمِ**
حُيِّيتَ مِن طَلَلٍ تَقادَمَ عَهدُهُ	**أَقوى وَأَقفَرَ بَعدَ أُمِّ الهَيثَمِ**[1]

[1]- عنترة بن شداد، ديوان عنترة، المعلقة، دار صادر، بيروت، باب الميم.

وفي العوامل الذاتية فقد يولد الشاعر من أم سوداء فيظل لونه ظلا يلاحقه، ويعيش الغربة، والغربة، والقهر داخل قبيلته.

حَسَنَاتِي عِندَ الزَّمَانِ ذُنُوبُ	**وَفِعَالِـي مَذَمَّـةٌ وَعُيُـوبُ**
وَنَصِيبِي مِنَ الحَبِيبِ بِعَادٌ	**وَلِغَيرِي الدُّنُـوِ مِنـهُ نَصِيبُ**
كَلَّ يَومٍ يَبرِي السَقَامَ مُحِبٌّ	**مِن حَبِيبٍ وَمَا لُسُقمِي طَبِيبُ** [1]

يشكو الشاعر من الظلم الذي يناله من الزمان وأهله، حتى غدت كل أفعاله ذنوبا وإن كانت حسنات، حتى الوصال الذي ينشده من الحبيب لا يناله أبدا، إن حبه يصير سقما نتيجة هذا البعد الذي لا يشفيه حبيب.

يعيش الشاعر وحشية الغربة التي تؤلمه، وتحرمه الوصال من حبيبته، أو من الاعتراف به، وهو ابن سيد من سادة القبيلة.

ومن غربة الحنين إلى الديار، والحبيب نجد كذلك امرأ القيس في معلقته:

قفا نبك من ذِكرى حبيب ومنزل	**بسِقطِ اللِّوى بينَ الدَّخول فحَوْملِ**
فتوضح فالمقراة لم يَعفُ رسمهاَ	**لما نسجتْها من جَنُوب وَشَمْأَلِ**
كأني غَداةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَلّوا	**لدى سَمُراتِ الحَيّ ناقِفُ حنظلِ**
وُقوفاً بها صَحْبي عَليَّ مَطِيَّهُمْ	**يقُولون لا تهلكْ أسىً وتجمّل**
وإنَّ شفائي عبرةٌ مهراقة	**فهلْ عند رَسمٍ دارِسٍ من مُعوَّلِ؟**

فالشاعر قد وقف ، واستوقف ، وبكى ، واستبكى على الأطلال في أسلوب أنيق[2]

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يرق لحنين بلال ر بن رباح حينما أصيب مع نفر من الصحابة بحمى المدينة فقال:

ألا ليتَ شِعري هل أبيتنَّ ليلةً	**بوادٍ وحولي إذخِرٌ وجليلٌ**

[1]- أحمد النجار، مقال جريدة شباب مصر،11 يونيو 2020م http://www.shbabmisr.com/t~146830

[2]- د.علي الجندي، عيون الشعر العربي القديم، دار غريب، مصر2000، ص13.

وهل أردْنَ يومًا مياهَ مجنةٍ	**وهل يبدون لي شَامَةٌ وطَفِيلٌ**[1]

وفي العصر الأموي نجد:

قيس بن الملوح يشكو المرارة والألم، وهو يمر بالديار بعد هجرانها والتغرب عنها، وإن كانت غربته مقرونة بإحساس عميق من الشوق إلى الحبيبة، وهي أقسى درجات الغربة النفسية التي يعبر عنها الأديب من خلال الانتماء إلى كل ما يمثل اللقاء بالحبيبة وإن كانت جدرانا، أو بقايا أوتاد.

أَمُرُّ عَلى الدِيارِ دِيارِ لَيلى	**أُقَبِّلَ ذا الجدارَ وَذا الجِدار**
وَما حُبّ الدِيارِ شَغَفنَ قَلبي	**وَلَكن حُبّ مَن سَكَنَ الدِيار**[2]

وقد عبر الشاعر جميل بن معمر عن معاناته من غربة الإبعاد والحرمان عن المحبوبة من النفي والبعد عن الوطن، حيث أنشد يقول في أجمل تصوير له في أبيات شعرية :

هَـاجت فُـؤادك لِلحبيبـة دَار أقوت وغيَّر آيَـهَا الأمطارُ
وعفا الربيع رسومَها فكأنها لم يغن قبلُ بربعها ديَّارُ
لما وقفتُ بها القلوصَ تبادرت مني الدموعُ وهاجني استعبارُ

وهذا أبو تمام على الرغم من اتصاله بالخلفاء والوزراء فقد كان كثير الترحال، والتنقل، حتى ألف هذه الغربة، فهو لا يقر به قرار حيث فرقته الغربة عن أهله، وأحبابه، وإخوانه على نحو ما يقول :

مَا اليَومُ أَوّلُ تَوديعي وَلا الثاني	**البَينُ أَكثَرُ مِن شَوقي وَأَحزاني**
دَعِ الفِراقَ فَإِنّ الدَهرَ ساعَدَهُ	**فَصارَ أَملَكَ مِن روحي بِجُثماني**[3]

ويستطرد الشاعر الصمة بن عبد الله القشيري حين رحل عن موطنه ناظما:

[1]- مومنة حمزة عبد الرحمان عون، نحيب الذات و إشراقات الفن في أدب الغرباء للأصفهاني الدارسات الإسلامية والعربية بنات الإسكندرية، ص538.

[2]- جميل بن معمر، الديوان، (ط بيروت)، دار بيروت للطباعة و النشر، ص410.

[3]- عيسى سلمان درويش المعموري، محاضرة، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، جامعة بابل 19-02-2018 http://www.uobabylon.edu.iq

قِفا وَدِّعا نَجدا وَمَن هَلَّ بِالحِمى	وَقُلِّ لِنَجدٍ عِندَنا أَن يُوَدَّعا
وَأَذكُرُ أَيّامَ الحِمى ثُمَّ أَنثَني	عَلى كَبدي مِن خَشيَةٍ أَن تَصَدَّعا
فَلَيسَت عَشيّاتِ الحِمى بِرَواجِعٍ	عَلَيكَ وَلَكِن خَلِّ عَينَيكَ تَدمَعا[1]

وعن محاورة الطبيعة، والنبات فهذا عبد الرحمان الداخل عندما رأى نخلة برصافته أثارت فيه شجونه، فرآها شبيهة به، فكلاهما غريب عن وطنه فقال:

تبدَّتْ لنا وسْطَ الرُّصافة نخلةٌ	تناءتْ بأرضِ الغرب عن بلد النخلِ
فقلتُ شبيهي في التغرُّب والنوى	وطولِ التَّنائي عن بَنِيَّ وعن أهلي
نشأتِ بأرض أنتِ فيها غريبةٌ	فمثلُكِ في الإقصاءِ والمُنْتأى مثلي
سقتكِ غوادي المُزْن من صَوبها الذي	يسِحُّ وتستمري السِّماكَين بالوَبل[2]

ونجد المتنبي وقد كثر لديه ذكر الغربة في شعره خاصة في فترة السنوات الثماني التي ترك فيها سيف الدولة وفي مواطن تعج بالحزن والأسى، يفرط في الفخر بنفسه إلى درجة تقترب من النرجسية، كما نلمس ذلك في قصيدته التي رثى فيها جدته و هو غريب.

ولَوْ لمْ تَكُوني بِنْتَ أكْرَمِ والِدٍ	لَكانَ أباكِ الضّخْمَ كونُكِ لي أُمّا
لَئِنْ لَذّ يَوْمُ الشّامِتِينَ بيَوْمِهَا	لقَدْ وَلَدَتْ مني لأنْفِهِمِ رَغْمَا
تَغَرّبَ لا مُسْتَعْظِماً غَيرَ نَفْسِهِ	ولا قابِلاً إلاّ لخالِقِهِ حُكْمَا
ولا سالِكاً إلاّ فُؤادَ عَجاجَةٍ	ولا واجِداً إلاّ لمَكْرُمَةٍ طَعْمَا
يَقُولونَ لي ما أنتَ في كلّ بَلدَةٍ	وما تَبتَغي؟ ما أبتَغي جَلّ أن يُسْمى[3]

وبالرغم من وجود المدن الطيبة الغنية بالجمال، والحدائق المزدانة يبرز الحنين إلى الديار العربية في شبه الجزيرة حتى أضحى غرضا مستقلا.

[1]- عمر الدقاق، كتاب الأمالي للقالي، دراسة واختيار، منشورات دار الشرق-ط1-1972م، ص88-89.
[2]- عبّاس حسن حاوي، مقال، مجلة أوراق ثقافية بيروت- لبنان ، الغربة في الشعر العربي 19-6-2019.
https://www.awraqthaqafya.com/170
[3]- الشيخ ناصف اليازجي، العرف الطيب شرح ديوان أبي الطيب 23-10-2016، ص178.

أ- غربة الأسر

وتتجلى في العصر نفسه غربة الحنين والفراق سببها الأسر، والسجن في بلاد الروم عند أبي فراس الحمداني ، والتي سميت بالروميات نظمها خلال سبع سنوات من الأسر يشكو، ويتألم متدفقا منه الحزن ، والوجع قائلا :

إنْ زُرْتُ «خَرْشَنَةً » أسِيرَا	**فَلَكَمْ أحَطْتُ بها مُغِيرا**
وَلَقَدْ رَأيْتُ النّارَ تَنْـ	**ـتَهِبُ المَنَازِلَ وَالقُصُورَا**
وَلَقَدْ رَأيْتُ السّبْيَ يُجْـ	**ـلبُ نحونا حوَّا ، وحورا**
نَخْتَارُ مِنْهُ الغَادَةَ الْـ	**ـحسناءَ ، والظبيَ الغريرَا**

ويقول:

منْ كانَ مثلي لمْ يبتْ	**إلاّ أسِيراً، أوْ أمِيرا**
لَيْسَتْ تَحُلّ سَرَاتُنَا	**إلا الصدورَ أو القبورا**[1]

كما ذكرنا من قبل، يعد أبو فراس من أكثر الشعراء نظما لقصائد الغربة، ومن أكثرهم تنويعا وتلوينا في موضوعاته وأفكاره، كما كان من أوضحهم أسلوبا. وأحرهم وأصدقهم عاطفة وأبرهم وجدانا.

وقد شد أدب الغربة وخصوصا الشعر، أنظار بعض الكتاب القدامى.فجمعوا بين أشتات من هذا الأدب في رسائل وكتب مستقلة. مثل الرسالة القيمة التي كتبها الجاحظ وعنوانها :"رسالة في الحنين إلى الأوطان" وهي رسالة جميلة للجاحظ طبعت في المطبعة السلفية مصر لمحي الدين الخطيب أكثر من مرة وقد جمع فيها ما يتصل بالحنين إلى الأوطان في ثلاث وأربعين صفحة. يقول الجاحظ :

[1]- أبي فراس الحمداني ،ديوان أبي فراس،2013، ص233.

ومما يؤكد ما قلنا في حب الأوطان قول الله-عز وجل-<< وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دياركُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ >>[1]

فسوى ببين قتل أنفسهم وبين الخروج من ديارهم.

وكما أننا نجد كتاب أدب الغرباء لأبي الفرج الأصفهاني، الذي هو بين أيدينا وقد استطاع أن يجمع فيها كل ما بلغته يده ووصلته من أخبار الغرباء وما لقي على الجدران لست وسبعين واقعة. كما أننا نجد نفس العنوان للعديد من المؤلفين نذكر من بينهم الكاتب مالك إبراهيم الأحمد في الغربة والغرباء وإلى تجربة أخرى ممزوجة بأصدق معاني الحب والحنين إلى المحبوبة وإلى قرطبة إنه الشاعر ابن زيدون وشوقه إلى حبيبته ولادة بنت المستكفي بعد أن هرب من سجنه، وفر من وجه الأمير ابن جهور، ولجأ إلى بني عباد في أشبيلية سنة 1049م قائلا :

خَليلَيّ، لا فِطرٌ يَسُرّ وَلا أَضْحَى	**فما حالُ من أمسَى مَشوقاً كما أَضْحَى ؟**
لَئِنْ شاقَني شَرْقُ العُقابِ فَلَمْ أزَل	**أخُصّ بمحوضِ الهَوى ذلك السفحَا**[2]

ويستطرد قائلا :

أَضْحَى التّنائي بَديلاً منْ تَدانِينَا	**وَنَابَ عَنْ طيبِ لُقْيانَا تجافينَا**
ألاّ وَقَد حانَ صُبحُ البَينِ، صَبّحَنا	**حَيْنٌ، فَقَامَ بِنَا للحَيْنِ نَاعِينَا**
مَنْ مبلغُ الملبسِينا، بانتزاحِهمُ	**حُزْناً، معَ الدهرِ لا يبلى ويُبْلينَا**
أَنَّ الزَمانَ الَّذي مازالَ يُضحِكُنا	**أُنساً بِقُربِهِمُ قَد عادَ يُبكينا** [3]

وفي مدينة بطليموس نظم أرجوزته المشهورة يعبر فيها عن آلام الغربة وشوقه إلى وطنه قائلا :

يا دَمعُ صُب ما شِئتَ أَن تَصوبا
وَيا فُؤادي آنَ أَن تَذوبا

[1]- النساء الآية 66.

[2]- ابن زيدون ،ديوان ابن زيدون، ت يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، ط2، ص21.

[3]- https://www.aldiwan.net/poem11836.html

إِذِ الرَزايا أَصبَحَت ضُروبا
لَم أَرَ لي في أَهلِها ضَريبا
قَد مَلَأَ الشَوقُ الحَشا نُدوبا
في الغَربِ إِذ رُحتُ بِهِ غَريبا
عَليلَ دَهرٍ سامَني تَعذيبا
أَدنى الضَنى إِذ أَبعَدَ الطَبيبا
لَيتَ القَبولَ أَحدَثَت هُبوبا
ريحٌ يَروحُ عَهدُها قَريبا
بِالأُفُقِ المُهدي إِلَينا طيبا
تَعَطَّرَت مِنهُ الصَبا جُيوبا
يُبرِدُ حَرَّ الكَبِدِ المَشبوبا[1]

وغرباء مألوفون جوناش ليمن وغيرها من العناوين التي تعرضت لظاهرة الغربة من زوايا مختلفة.

وببلوغنا ما يسمى بعصر الانحطاط الذي دام قرابة أربعة قرون، برزت طائفة من أبناء الأمة حاولت جاهدة استعادة أمجاد أسلافها الأدبية، وتنتشل أمتها من الجمود الذي أصابها، من خلال ما عاشته هذه الطائفة من غربة خصوصا مع انتشار أفكار، وفلسفات غريبة بعيدة كل البعد خصوصيات الأمة العربية بداعي حملات الغرب على الشرق بالإضافة إلى سيطرة المادة ، فمنهم من تعرض إلى التغريب قسرا كالنفي من طرف الاستعمار.

ب- الغربة النفسية

فصدحت قرائحهم تقول وهذا أحمد سامي البارودي قائلا :

كَفى بِمُقامِي فى "سَرنديبَ " غُربةً نَزَعْتُ بِهَا عَنِّي ثِيَابَ الْعَلاَئِقِ

[1]- ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ص15.

وَمَنْ رَامَ نَيْلَ الْعِزِّ فَلْيَصْطَبِرْ عَلَى	لِقَاءِ الْمَنَايَا، وَاقْتِحَامِ الْمَضَايِقِ
يَقولُ أُناسٌ ، إنّنى ثُرتُ خالِعاً	وَتِلْكَ هَنَاتٌ لَمْ تَكُنْ مِنْ خَلاَئِقِي
وَلَكِنَّنِي نَادَيْتُ بِالْعَدْلِ طَالِباً	رِضا اللهِ ، واستنهضتُ أهلَ الحقائقِ
أمرتُ بِمعروفٍ ، وأنكرتُ مُنكراً	وذلِكَ حُكْمٌ فِي رِقَابِ الْخَلاَئِقِ[1]

ج- الغربة الاجتماعية

و للجواهري تجربة مع الغربة الاجتماعية فمن الطبيعي أن يكون المجتمع البشري حجر الزاوية في كل عمل فني، فالإنسان ليس شيئا منفصلا عن مجتمعه، ولكنه حجر في مجموعة البناء الإنساني، وهو بصفته هذه يتفاعل حتما مع الناس في مدينته ومن حوله وبيئته في وطنه كله، كما تفاعل مع حوادث العالم بأسره وتطوره ومدينته وحضارته، إنه يتأثر بالنكبات الفردية والعامة، وبالحوادث السياسية والاجتماعية وكإنسان يتألم مع المتألمين، ويفرح مع الفرحين، يحس بسعادة السعداء وشقاء الأشقياء، وهذا هو حال الإنسان العادي، فكيف إذا كان هذا شأن الأديب فهو أحق بذلك، لأن الأديب لا عدة له غير الإحساس المرهف، والتعبير الجميل، والدليل الصادق، والمرشد الحكيم، تلك هي رسالته الكبرى، وذلك هو سبيله الأول[2] فالسكوت في معرض الحديث عن الحقوق هو غربة تقيد الحرية في التعبير، فالثورة على الشعور بالغربة الاجتماعية لابد أن تفعل فعلها وتؤثر تأثيرها الحقيقي فيه، يقول في قصيدته ثورة وجدان.

سَكَتُّ حتَّى شَكَتَنْي غُرُّ أشعاري	واليومَ أنطِقُ حُرّاً غيرَ مهذارِ
سلَّطتُ عقلي على مَيلي وعاطفتي	صَبْراً كما سَلَّطُوا ماءً على نار
ثُرْ يا شُعورُ على ضَيْمٍ تُكابدُهُ	أوْلا فلستَ على شيءٍ بِثَوَّار
وقَّعْتُ أُنشودتي والحزنُ يملُؤها	مَهابَةً ونياطُ القلبِ أوتاري
في ذمَّةِ الشِّعْرِ ما ألقى وأعظَمُهُ	أنّي أُغنّي لِأصْنامٍ وأحجار
الشعبُ شعبي وإنْ لم يرضَ منتبذٌ	والدارُ رغمَ " دخيلٍ " عابَني داري

[1]- شوقي الضيف، البارودي رائد الشعر الحديث،دار المعارف، مصر،1964، ص83-84.
[2]- ينظر :عيسى الناعوري، أدب المهجر،ط3 دار المعارف، مصر د،ت، ص203-204.

لَوْ في يدي لحَبَسْتُ الغيثَ عن وطَنٍ	مُسْتَسْلِمٍ وقَطعتُ السلسلَ الجاري
وكيفَ يُسْمَعُ صوتُ الحقِّ في بلدٍ	للإفكِ والزُّورِ فيه ألفُ مِزمار [1]

د- الغربة السياسية

عند أحمد مطر "إن السياسة تعني تدبير شؤون الناس، وتملك أمورهم والرئاسة عليهم وهي أيضا الفن المستعمل لحكم الأمم، وتنظيم الدولة من الداخل، وتنظيم التزاماتها مع الدول الأخرى"[2]. قد أختلف مع مطران حول مفهومه للسياسة على أنه تملك أمورهم والرئاسة عليهم وهي نظرة سلبية، على أنه محاولة توزيع عادل للسلطة من أجل بناء قيم اجتماعية وأستدل على ذلك من خلال هذا التعريف.

وقد عرفت جامعة كولومبيا السياسة بأنها (علم دراسة الحكومات والمؤسسات والسلوك والممارسة السياسية)، بمعنى أن علم السياسة يهتم بدراسة عملية الحكم والمؤسسات السياسية بنوعيها من مؤسسات رسمية (المؤسستان التشريعية والتنفيذية) وتنظيمات غير رسمية مثل الأحزاب وجماعات الضغط والرأي العام. كما يعنى بدراسة النشاطات السياسية للأفراد مثل عمليات التصويت في الانتخابات وغيرها.

وقد عرفته المعاجم الفرنسية بأنه علم دراسة حكم المجتمعات الإنسانية (أي علم حكم الدول) .[3]

ويرى ديفيد إيستن الأمريكي أنه العلم الذي يهتم بدراسة التوزيع السلطوي الإلزامي للقيم في المجتمع .بمعنى أن علم السياسة يتركز اهتمامه على دراسة الدور المحوري للسلطة

[1]- نجاح عطار، الجواهري في العيون من أشعاره، ط4،دار طلاس للطباعة والنشر،1998م، ص77.
[2]-أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي، ط5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،1967م، ص3-4.
[3]- مقال حيدر الجراح، مفاهيم السياسة ،شبكة النبأ.https://annabaa.org/arabic/authorsarticles/1711 .

السياسية في الحفاظ على قيم المجتمع وإنفاذ القوانين باستخدام أدوات القوة والإكراه إذا اقتضى الأمر في مواجهة الخارجين على هذه القيم والقوانين.[1]

وهذه التعريفات تتضمن جوانب كثيرة، أهمها:

العلاقات الاجتماعية التي تشمل السلطة والحكم، كالعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وعلاقة الدولة بجيرانها، والعلاقة بين الحكومة والأحزاب السياسية، والعلاقة بين الأحزاب السياسية...

وقد عرف الشعراء العرب الشعر السياسي بوصفه غرضا شعريا منذ العصر الجاهلي، ومازالوا يمارسون كتابته وقوله إلى يومنا الحاضر، فالشعر مرتبط بالسياسة على مر التاريخ والعصور، فكم انبرت الأقلام للدفاع عن الحقوق والحريات، ولعل من أسباب استمرار هذا الغرض الشعري، الحوادث والأزمات والحروب التي أصابت أرض العرب التي ما تزال مستمرة إلى وقتنا الحالي، فكانت رسالة الشعراء في ذلك كله حمل القلم لإيصال رسالتهم من خلال أشعارهم، وهي تتمثل بالنصح والإرشاد، ورفع الهمم من أجل خدمة أوطانهم، والذود عنها في وجه العدو الداخل المتمثل بالظالم المستغل، أو الخطر الخارجي.[2]

وللشاعر أحمد مطر درب طويل مع الألم، نتيجة لمواقفه السياسية التي التزم بها، ونادى من أجل تحقيقها، مثل المطالبة بنشر الحرية، والتخلص من التبعية للأجنبي، وتحرير الأرضي العربية كافة، فلا غرابة في انتشار ألفاظ السياسية بصورة كبيرة في شعره، ولا سيما أنه عد نفسه سياسيا، فهو فنان، ورأى أن معظم أهل الفن من السياسيين.[3]

[1]- مقال محمد جبور،العلاقة بين علم السياسة والعلوم الاجتماعية،مجلة عمون17-08-2019
https://www.ammonnews.net /article/477438

[2]- ينظر: عدنان قاسم، الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر دراسة نقدية في أصالة الشعرط1المنشاة الشعبية للنشر.

[3]- مسلم مالك بعير الأسدي، لغة الشعر عند أحمد مطر، رسالة ماجستير،جامعة بابل،2007، ص39.

لهذا نجد طائفة كبيرة من أشعاره السياسة التي تعبر الغرب السياسية وما يصبو إليه بعنوان طبيعة صامتة.[1]

فِي مَقْلَبِ الْقُمَامَةِ
رَأَيْتُ جَثَّةً لَهَا مَلَامِحُ الْأَعْرَابِ
تَجَمَّعَتْ مِنْ حَوْلِهَا النُّسُورُ وَالذُّبَابُ
وَفَوْقَهَا عَلَامَةُ
تَقُولُ :هَذِي جِيفَةٍ
كَانَتْ تُمْسَى سَابِقًا كَرَامَةٍ
وقَال :
كُنْتُ أَسيرَ مُفْرَدًا
أَحمَلَ أَفْكَارِيٌّ مَعْي
وَمِنْطَقِيٌّ وَمَسْمَعِيٌّ
فَازْدَحَمَتْ
مِنْ حَوْلِيِّ الْوُجُوهِ
قَالَ لهم زَعيمَهُمْ :خُذُوهُ
سَأَلَتْهُمْ:
مَا تُهْمَتِي
فَقِيلَ لِي:
تَجَمُّعُ مَشْبُوهُ

وفي قصيدة أخرى يقول :

وَضَعُونِي فِي إِناءٍ
ثُمَّ قَالُوا لِي : تَأَقْلَمَ
وَأَنَا لَسْتُ بِمَاءِ

[1]- أحمد مطر، المجموعة الشعرية، ط1، بيروت دار الحرية،2011، ص12.

أَنَا مِنْ طِينِ السَّمَاءِ
وَإِذَا ضَاقَ إِنائِي بِنُمُوِّي يَتَحَطَّمُ
خَيَّرُونِي
بَيْنَ مَوْتٍ وَبَقاءَ
بَيْنَ أَنْ أَرْقُصَ فَوْقَ الْحَبْلِ
أَوْ أَرَقْصَ تَحْتَ الْحَبْلِ
فَاُخْتِرْتِ الْبَقاءَ
قُلْتِ : أَعْدَمُ
فَاِخْتَلَفُوا بِالْحَبْلِ صَوْتُ الْبَبَّغاءِ
وَأَمَدُّونِي بِصَمْتِ أَيْدِي يَتَكَلَّمُ

وكذلك كان لنفي شوقي بإسبانيا انعكاسه والذي نلمسه من خلال هذه الأبيات حيث يقول:

اِختِلافُ النَهارِ وَاللَيلِ يُنسي	**اُذكُرا لِيَ الصِبا وَأَيّامَ أُنسي**
وَصِفا لي مُلاوَةً مِن شَبابٍ	**صُوِّرَت مِن تَصَوُّراتٍ وَمَسِّ**
عصفتْ كالصَّبا اللعوبِ ومرّت	**سِنةً حُلوةً ، ولذَّةُ خَلْس**
وسلا مصرَ : هل سلا القلبُ عنها	**أَو أَسا جُرحَه الزمان المؤسّي؟** [1]

وإلى اسم آخر فرض تميزه مزاوجا بين العمودي ، والتفعيلة وأحيانا منه إلى الشعر الحر الذي كان أحد رواده إنه بدر شاكر السياب الذي يتجرع مرارة الغربة ، وترجمها من خلال دمعه الذي انسكب ينساب على جوانب النص بسبب تراكم الآم جراء البعد عن الوطن، والغربة، والأم والتي حرم عاطفتها صغيرا قائلا :

حُرِّمْتِ عَاطِفَةَ الْأُمومَةِ وَأَنَا اِبْنُ أَرْبَعِ...
هِي دَوْرَةُ الْأَفْلَاكِ فِي عُمَرِي تُكَوِّرُ لِي زَمانَهُ
فِي لَحْظَتَيْنِ مِنَ الْأَمَانِ ، وَإِنَّ تَكُنْ فَقُدْتِ مَكَانَهُ
هِي وَجْهُ أُمِّي فِي الظَّلامِ

[1]- د.شوقي ضيف ، البارودي رائد الشعر الحديث، دار المعارف مصر 1964، ص83-84.

وَصَوَّتَهَا ، يَنْزَلِقَانِّ مَعَ الرُّؤَى حَتَّى أَنَامَ
جيكور جيكور ياحقلا مِنَ النُّورِ
ياجدولا مِنْ فِرْشَاتٍ نطاردها
فِي اللَّيْلِ فِي عَالَمِ الْأَحْلَامِ وَالْقَمَرِ
يَنْسَرِبُ أَجْنِحَتُهُ أَنْدَى مِنَ الْمَطَرِ
فِي أَوَّلَ الصَّيْفَ
يا بَابِ الْأَساطيرِ[1]

وتنقلب المعادلة عند محمود درويش، فتشعر الأرض باشتياق إلى حبيبها المفقود الذي رحل عنها منذ سنوات طويلة ولكنها تكابد الغياب والبعد، لأنها لم تتعود أن ينساها للحظة. وبدت قصائده بمثابة الوصايا الأخيرة التي تصدر عن رجل ينتظر تنفيذ حكم الإعدام لكنه يراوغ الموت بقوله: لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي.

أحنُّ إلى خبز أُمى.
وقهوةِ أُمى ولمسةِ أمى.....
وتكبرُ فىَّ الطفولةُ.
يوماً على صدر يومِ..
وأعشق عمرى لأنى إذا مُتُّ ،..
أخجل من دمع أُمى..!

وقال:

أيُّها المارّون بيْن الكلِمات العابِرة
اِحمِلوا أسمائِكُم وانصرفوا
خذّوا ما شِئتُم مِن زُرقة البحر ورمل الذّاكِرة
وخذّوا ما شِئتُم مِن صور كي تعرُفوا
إنّكُم لن تعرُفوا.1

[1]- عيسى بلاط، بدر شاكر السياب، ط4-دار الشؤون-بغداد-1971، ص218-142.

وقالت فدوى طوقان:

أَتُرى ذُكِرْتِ مَبَاهِجَ الْأَعْيَادِ فِي يافا الْجَمِيلَةِ ؟
أَهَفَتْ تَقَلُّبُكَ ذُكْرَيَاتِ الْعِيدِ أَيَّامُ الطُّفُولَةِ ؟
إِذْ أَنْتَ كَالْحَسُّونِ تَنْطَلِقِينَ فِي زَهْوِ غَرِيرٍ.
تَتَرَاكَضِينَ مَعَ الذات بِمَوْكِبِ فَرَحٍ طَرُوبِ
وَالْعُقْدَةُ الْحَمْرَاءَ قَدْ رَفَتْ عَلَى الرَّأْسِ الصَّغِيرِ [2]

وهذا حضور نزار قباني وهو يقول:

حُزْنُ يَغْتَالُنِي
وَهُمْ يُقِيلُنِي
وَظُلْمُ حَبِيبُ يُعَذِّبُنِي
آهٍ ! مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ
الَّتِي كُلُّهَا آلاَمَ لَا تَنْتَهِي
وجروح لَا تَنْبَرِي
وَدُموعٌ مِنَ الْعُيُونِ تَجْرِي
جُرِحْتِ خَدَّي
أَرُقْتِ مَضْجَعَي
وَسُلِبْتِ نَوْمَي
آهٍ يا قَلْبِي [3]
يا وَطَنِيُّ الْحَزِينِ
حَوَّلْتِنِي بِلَحْظَةِ
مِنْ شَاعِرِ يَكْتُبُ شَعْرُ الْحُبِّ وَالْحَنِينِ
لِشَاعَرَ يَكْتُبُ بِالسَّكِّيْنِ [4]

[1]- محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، المكتبة الأهلية للنشروالتوزيع2014.
[2]- حسان نزال/قباطية ، مقال، في دنيا الوطن، وقفة مع الشعر الوطني عند فدوى طوقان، 09-09-2006.
[3] ـ نزار قباني شعر نزار قباني عن الغراف مقالة سامر حمدان 9 فبراير2016.
[4]- سامي أحمد بسام، حركة الشعر الحديث في سوريا من خلال أعلامه، ص420.

وقال:

وَطَنِيٌّ
يَفْهَمُكَ السّذاجَ رَيْحانًا وَرَاحَ
وَيَظُنُّونَكَ دَرْوِيشًا يَهِزُّ الرَّأْسُ ، أَوْ رَقْصُ سَمَاحِ
وَيَظُنُّونَكَ فِي غَفْلَتِهِمْ
نَغْمَةٌ مِنْ بَزَقَ..[1]

نخلص من خلال هذه الآراء إلى أن الدارسين والباحثين نوعان فمنهم من يرى أن مصطلح الغربة يختلف عن مصطلح الاغتراب وهم قلة وفريق آخر يرى أنهما يحملان نفس المعنى وهو :

- الغربة الاجتماعية كالتي نلمسها عند الجواهري.
- الغربة المكانية النفسية مثل غربة التي عاشها محمود درويش.
- الغربة السياسية كتلك التي نلمسها لدى أحمد مطر.
- إلى جانب الغربة الروحية و الميتافيزيقية كالتي سجلت لدى الغرب، ولا ننسى أن للمتصوفة وأصحاب الطريقة تقسيم آخر وهي :
- الغربة الظاهرية وأخرى باطنية.

أما عن الخصائص فمنها ما هو موضوعي مثل :

- الحنين بكل أنواعه الوطن، الأمل، الحبيبة، الأصدقاء، الماضي.
- الشوق، الألم، الحزن، الشكوى.

ومنها ما هو أسلوبي مثل :

[1]- عبيدة الشبلي، نزار قباني، ط13، بيروت1999م، ص35. مذكرة شعر الغربة عن الوطن بين القيم والحديث،دراسات في الأدب والفن22 حزيران/يونيو/2018،مركز حرمون للدرسات المعاصرة، ص14.

- الطول في الشعر، اختيار بعض البحور، أسلوب الحوار، الاستفهام، وحدة الموضوع وتنوعه، صدق العاطفة، سهولة الألفاظ، التكرار، بناء القصيدة، التأمل، المزج بين الطبيعة والحنين ، والصور البيانية والصور الشعرية، وصف المكان،الحوار الذاتي، أو الحوار مع الحيوان أو الطبيعة.

الفصل الثاني

خصائص أدب الغربة في كتاب أدب الغرباء

1. المبحث الأول: التعريف بالمؤلف

2. المبحث الثاني: التعريف بالكتاب ومضمونه

3. المبحث الثالث: الخصائص الموضوعية والفنية

المبحث الأول : التعريف بالمؤلف

هو علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمان بن مروان بن محمد الزيدي ولد سنة 284هـ في خلافة المعتضد بالله اشتهر بالأصفهاني لأنها مسقط رأسه، في حين هناك من يذكر أنه لم ينشأ بها، بل ببغداد وجعلها موطنا له، ومن بين من وصفه بأنه أصفهاني الأصل الثعالبي و المستشرق نيكلسون بالإضافة إلى جميع من الكتاب العرب. ودليلهم في ذلك هذا القول بأن لمروان بن الحكم أعقاب في أصفهان ومصر منهم صاحب الأغاني، أسرته من أهل الأدب والموسيقى حيث كان جده، وعمه وعم أبيه، من أعلام كتاب سامراء في عهد المتوكل العباسي عاش في بغداد بعد سنة 300 للهجرة بقليل وتوفي سنة 284هـ إلا أن تاريخ وفاته بقي خلاف العديد من الأعلام وهي إحدى القضايا التي تطرق إليها محقق الكتاب في محاولة منه لإثبات سنة وفاته.[1]

[1]- http://ar.wikishia.net/view

ويشار إلى أنه عاش مع والده منذ السابع عشرة وما بعده مع أبيه في بغداد كما له حكايات تدل على تواجده في سامراء وتحدث هو عن سفره إلى مدن مختلفة أقام فيها كالكوفة، وأنطاكية، والبصرة التي ورد ذكرها في كتابه أدب الغرباء فهو يقول في هذه الرواية أنه ذهب إلى البصرة قبل عدة سنوات ووجد له بيتا في خان بحي قريش، وعاش فيه غريبا.

وقد كتب على جدرا البيت حين كان يغادره إلى حصن المهدي مقطوعة مما ورد فيها:

الْحَمْدُ لِلّهِ عَلَى مَا أرَى	**منْ ضُيِّعْتِي مِنْ بَيْنَ هَذا الْوَرَى**
أصارنى الدَّهْرَ إِلَى حالَةِ	**يُعْدِمُ فِيهَا الضَّيِّقُ عِنْدَ الْقرَى**
بُدِّلْتِ مِنْ بَعْدَ الْغِنى حاجَة	**إِلَى كلابِ يَلْبَسُونَ الفرا**
أَصْبَحَ أَدُمُ السُّوقِ لِي مَأكَلا	**وَصَارَ خَبَرُ الْبَيْتِ خَبَرً الثرا**

ذهب العديد من العلماء- الإمامية وأهل السنة-إلى أن الرجل شيعي زيدي المذهب وقد اعتبر هذا ابن حجر من النوادر كما أن ابن الجوزي يعتبره متشيعا والقاضي التنويخي الذي عاصره.

ومن شيوخه نذكر محمد بن جرير الطبري، وجعفر بن قدامة، وعلي بن سليمان الأخفش ويتفق العلماء أن له مكانه ثقافية وعلمية أديبا وعالما من علماء الأنساب والسير كما وصف بالشاعر المصنف، كما أنه جمع بين علوم مختلفة كالرواية، واللغة، والتاريخ، والشعر والنجوم والطب و البيطرة .

من بين أشهر مؤلفاته الأغاني الذي ارتبط ذكره باسمه وكذا مقاتل الطالبين الذي ألفه قي 313هـ، وأدب الغرباء الذي سيأتي الحديث عنه إذا فقد العديد من مؤلفاته ولا نعرف من أمرها شيئا سوى أسمائها وعناوينها. ولم يحرص أصحاب التراجم القديمة على ذكر قائمة كاملة أو قريبة من الكمال بمؤلفاته، فمنهم من عد مشهورا منها،ومنهم من اكتفى بذكر مارآه، ومنهم من اقتصر على عدد قليل جدا منها، كما أن منهم من استغنى عن ذلك كله بالإشارة إلى كثرة تآليفه وكتبه. ولعل أوسع قائمة كانت تلك التي ذكرها ياقوت الحموي في معجمه، إذ عد خمسة وعشرين كتابا[1]عرف عنه رقة القلب ورهافة الحس، حيث رثاء ديك له. فكانت كثيرا ما تدور عليه الدوائر، فقد تبدلت أحواله من الغنى إلى الفقر وبالوصل هجرا، وبالوطن غربة فكان يحول في مجلس الوزراء ويصول فاصل وراوي ينثر من أدبه يفيض من علمه

[1]- مؤمنة حمزة عبد الرحمن، نحيب الذات وإشراقات الفن، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بالإسكندرية.

فكانت المجالس من أسباب نباهة شأنه وشيوع ذكره ورفاهيته، كما أنه عاش حياة مليئة بالمفارقات، وشخصية عكرتها التجارب، ونفس أبيه تنأى بعيدا إذا لم تجد مكانها، وزامن ذلك كله ذائقة أدبية مميزة. تفاعلت مع الأحداث، فنتج عن ذلك رصيد أدبي وثروة لا غنى عنها تضاف إلى المكتبة العربية[1].

2. المبحث الثاني: التعريف بالكتاب ومضمونه

جاء في تسمية الكتاب ذُكر كتاب "أدب الغرباء" ضمن مؤلفات أبي الفرج في عدة مصادر بعناوين عدة، حيث ذكره ابن النديم في فهرسه، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، وياقوت الحموي في معجمه، وابن خلكان في وفياته، وتناقله، من أتى بعدهم بقرون مثل حاجي خليفة في كشف الظنون، ومن حدا حذوه من الباحثين المحدثين. وقد أوردوا الكتاب بعناوين مختلفة الصيغ، فسماه ابن النديم: "أدب الغرباء من أهل الفضل والأدب" وورد عند الخطيب باسم: "آداب الغرباء " وذكره ياقوت باسم " أدب الغرباء" مرة، "أدباء الغرباء" مرة أخرى.

فقال ابن النديم في سياق الحديث عن مصنفات أبي الفرج : "وله من الكتب كتاب (الأغاني الكبير)، نحو خمسة آلاف ورقة، كتاب (مجرد الأغاني)، كتاب (مقاتل آل أبي طالب)، كتاب (تفضيل ذي الحجة)، كتاب (الأخبار والنوادر)، (كتاب أدب السماع)، كتاب (أخبار الطفيليين)، كتاب (أدب الغرباء من أهل الفضل والأدب)...."[2]فقد ذكره ابن النديم بعنوان "أدب الغرباء من أهل الفضل والأدب" ولم يذكره بهذا العنوان كاملا.فيما رأينا .سوى ابن النديم.

بينما أورده الخطيب البغدادي بعنوان "آداب الغرباء" فقال في ترجمة أبي الفرج: "كان عالما بأيام الناس والأنساب والسيرة، وكان شاعرا محسنا، والغالب عليه رواية الأخبار والآداب، وصنف كتبا كثيرة منها: (الأغاني الكبير)، و(مقاتل الطالبيين)، و(أخبار الإماء الشواعر)، وكتاب (الحانات)، وكتاب (الديارات)، و(آداب الغرباء)، وغير ذلك.[3]

[1]- أبو الفرج الأصفهاني جريدة الرياض الجمعة 17صفر 1427ه-17مارس2006م-العدد13780 http://www.alriyadh.com/138821.

[2]- ابن النديم، الفهرست لأبي الفرج، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة بيروت-لبنان،ط2 -1997م، ص144.

[3]- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ط/دار الكتب العلمية- بيروت،الأولى،1997ص11-39.

أما ياقوت الحموي فقد ذكر الكتاب باسم أدب الغرباء في سياق استدلاله على تصويب تاريخ وفاة أبي الفرج، فقال: وفاته هذه فيها نظر وتفتقر إلى التأمل، لأنه ذكر في كتاب "أدب الغرباء" من تأليفه: حدثني صديق قال: قرأت على قصر معز الدولة بالشماسية يقول فلان بن فلان الهروي، حضرت هذا الموضع في سماط معز الدولة والدنيا عليه مقبلة، وهيبة الملك عليه مشتملة، ثم عدت إليه في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وذكر في موضع آخر من كتابه هذا قصة له مع صبي كان يحبه ذكرتها بعد هذا يذكر فيه موت معز الدولة وولاية ابنه بختيار، وكان ذلك في سنة ست وخمسين وثلاثمائة، ويزعم في تلك الحكاية أنه كان في عصر شبابه فلا أدري ما هذا الاختلاف؟"

وبعد سطور عدة، ذكر ياقوت الكتاب في سياق سرد تصانيف أبي الفرج بعنوان:"أدباء الغرباء" فقال: "وتصانيفه كثيرة وهذا الذي يحضرني منها: كتاب (الأغاني الكبير)، كتاب (مجرد الأغاني)، كتاب (التعديل والانتصاف في أخبار القبائل وأنسابها) لم أره، وبودي لو رأيته ذكره هو في كتاب الأغاني، كتاب (مقاتل الطالبين)، كتاب (أخبار القيان)، وكتاب (الإماء الشواعر)، كتاب (المماليك الشعراء)، كتاب (أدباء الغرباء)..."[1]

وتابع ابن خلكان الخطيب البغدادي في تسمية الكتاب "آداب الغرباء"، وذلك في سياق سرد مؤلفات أبي الفرج، فقال بعد أن تناول كتاب الأغاني:" ومنها: كتاب "القيان" وكتاب "الإماء الشواعر"، وكتاب "الديارات"، وكتاب "دعوة التجار"، وكتاب "مجرد الأغاني"، وكتاب" أخبار جحظة البرمكي"،و "مقاتل الطالبين" وكتاب "الحانات" و" آداب الغرباء"[2] وتابعهما في العنوان نفسه حاجي خليفة في كشف الظنون.[3]

ومع اختلاف صيغ تسمية الكتاب، وان كانت متقاربة، إلا أن محقق الكتاب صلاح الدين المنجد آثر اعتمادا العنوان الذي ذكره ابن النديم" أدب الغرباء من أهل الفضل والأدب"، معللا لذلك بكونه معاصرا لأبي الفرج، لكنه اكتفى بصدرها فقط، فنشر الكتاب للمرة الأولى بدار الكتاب الجديد في بيروت عام1972م، بعنوان "أدب الغرباء".وقد وقع

[1]- ياقوت الحموي معجم الأدباء "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب" ت. د إحسان عباس ط1،1993م، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ج4، ص1707-1708

[2]- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ت ، د إحسان عباس ط/دار صادر-بيروت، 308/3.

[3]- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ت محمد شرف الدين يالتقايا ط/مكتبة المثنى-بغداد 1941م، 1/ص43.

الكتاب في ثمانين صفحة من القطع المتوسط، تسبقها مقدمة للمحقق قدم بها للكتاب استغرقت تسع عشرة صفحة، أشار فيها إلى مجموعة من المصادر القديمة والدراسات الحديثة التي ترجمت لأبي الفرج، وأوضح أهمية الكتاب، وبين كيفية حصوله على مخطوطته النادرة، وناقش تاريخ وفاة أبي الفرج وفق الأخبار الواردة في الكتاب، ثم أوضح منهجه في التحقيق.

أ- الكتاب في شكل مخطوط:

وجد مخطوط كتاب أدب الغرباء والذي ظل ردحا من الزمن مخفيا وغائب عن الأنظار وهو ثالث عمل وصل إلينا بعد كتاب الأغاني ومقاتل الطالبين، ويعود الفضل في ذلك للمحقق الدكتور صلاح الدين المنجد الذي أماط اللثام عن أهم أعمال نابغة من نوابغ الفكر العربي أبي الفرج الأصفهاني، أو الأصبهاني كما يحلو للبعض تسميته. راويا عن نفسه دعيت عام 1965م إلى جامعة طهران في كلية الإلهيات لإلقاء عدد من المحاضرات، وهناك تعرف على عميد الكلية الأستاذ بديع الزمان فروزنفر المتخصص في الشعر العربي والفارسي. والذي أخبره بعثوره على نسخة فريدة ولعلها الوحيدة في مكتبات العالم من مخطوطة أدب الغرباء للأصبهاني، وأطلعه عليها.

يقول المحقق أتينا على ذكر أبا الفرج وما كان له من فضل على الأدب العربي فقال لي عند كتاب، أنا ضنين به لنفاسته، ولم أعلم أحد بوجوده عندي، لكنك تستحق أن تراه. وقام إلى خزانته، فأخرج مخطوطا وقال لي: هذا كتاب أدب الغرباء، إنها نسخة فريدة لعلها الوحيدة في مكتبات العالم[1]

وابتهجت بالمخطوط بهجة عميقة لا حد لها،وشعرت بزهو وفخر لمعرفتي أين يوجد هذا الكتاب المفقود، وسألته أن يأذن لي بالبقاء عنده لأقرأ الكتاب فقال لي: لا تتعب نفسك الآن، سأهدي إليك نسخة منه لتقرأه وتنشره.

وبعد أيام كانت النسخة عندي.

[1]- ينظر: أدب الغرباء، ص8.

وشغلتني مشاغل السياسة بعد ذلك عن إخراج الكتاب للناس، وكان رحمه الله ينتظر نشره. وعندما التقيت به آخر مرة في طهران، عام 1970، وكنت مدعوا للمشاركة في مهرجان الإمام أبي جعفر الطوسي، كان أول ما سألني: هل ظهر الكتاب؟

وتوفي، رحمه الله، بعد شهور، والكتاب لم يظهر بعد.

واليوم، وأنا أكتب هذه المقدمة، لشّد ما أشعر بالامتنان العميق لهذا العالم والجليل على صنيعه. فلطالما كنت ألقي العلماء في البلاد الإسلامية فأسألهم عن المخطوط لكتاب كنت أعلم أنه عندهم، فيذكرون أنه لديهم، أو أرجوهم الاطلاع عليه فيعدون ولا يفون، أو يعتذرون ولا يلبون.[1]

ب- مضمون الكتاب وأهميته

الكتاب الذي هو بين أدينا جدير بالدراسة لأهمية البالغة والتي أشار إليها المحقق في مجموعة من المزايا، فأبو الفرج لم يتتبع في كتابه شعر شاعر بعينه، ولا فئة من فئات الشعراء تربط بينها خصائص مشتركة، بل تصدى لجمع شتات النفس البشرية من خلال خطرات سجلها مغتربون على الجدران، أو الأحجار، أو الأشجار، أو الأبواب، أو غيرها أما موضوع الكتاب فهو طريف ما نعتقد أن أحدا سبقه إليه.

يقول في مقدمة الكتاب:" وقد جمعت في هذا الكتاب ما وقع إلي وعرفته وسمعت به وشاهدته من أخبار من قال شعرا في غربة، ونطق عما به من كربة، وأعلن الشكوى بوجده إلي كل مشرد عن أوطانه، ونازح الدار عن إخوانه، فكتب بما لقي على الجدران، وباح بسره في كل حانة وبستان. إذ كان ذلك قد صار عادة الغرباء في كل بلد ومقصد، وعلامة بينهم في كل محضر ومشهد".

[1]- المرجع نفسه، ص9.

وعن الكتاب يقول المنجد: "أما موضوع الكتاب فهو طريف ولا نعتقد أن أحدا سبقه إليه"، يقول في مقدمة الكتاب: "وقد جمعت في هذا الكتاب ما وقع إليّ وعرفته وسمعت به وشاهدته من أخبار من قال شعرا في غربة، ونطق عما به من كربة، وأعلن الشكوى بوجده إلى كل مشرد عن أوطانه، ونازح الدار عن إخوانه، فكتب بما لقي على الجدران، وباح بسره في كل حانة وبستان، إذ كان ذلك قد صار عادة الغرباء في كل بلد ومقصد، وعلامة بينهم في كل محضر ومشهد."

ونحن نجد أولا فيما قاله أبو الفرج أصالة الموضوع، فلم يسبق أحد من القدامى إلى جمع مثل هذه الأخبار والأشعار، وإن كنا نجد بعضها مفرقة في كتب الأدب. ثم تجد في الكتاب هذه المجموعة الفنية من العواطف الإنسانية التي تثيرها الغربة، أو الفراق: من حنين، ولوعة، وشكوى، وعذاب، وتلهف وأمان، مسطرة في بلدان الدنيا المتباعدة على الحيطان والجدران . وثمة ميزة أخرى لهذا الكتاب هو أن معظم أخباره لا توجد في مصادر أخرى إلا القليل المعدود منها، وما نجده في هذه الكتب معظمه منقول عن أبي الفرج. وميزة رابعة يختص بها هذا الكتاب تظهر في أن بعض نصوصه يقدم لنا أضواء جديدة على حياة أبي الفرج، سواء في اتصاله ببعض معاصريه، أو في انطلاقه في اللهو، أو في حياته ومقدار عمره." نشر الكتاب أول مرة في بيروت عام 1972 بتحقيق المنجد، معتمدا على نسخته الفريدة والوحيدة في العالم، وهي النسخة التي تحتفظ بها مكتبة العلامة بديع الزمان فروزنفر، وهي نسخة حديثة، مكتوبة بخط نسخ سقيم، فرغ ناسخها من نقلها يوم 14 جمادى الأولى 1293هـ".[1]

ت- دوافع التأليف

كما أن لكل سبب مسبب، ولكل عمل أدبي خلفيات. يعرج الأصفهاني إلى دواعي تأليفه هذا الكتاب الناجمة عن أزمة نفسية مر بها فيقول في ذلك :"أما بعد، فإن من أصعب

[1]- مقال جريدة العرب الاقتصادية 24-مارس-2017
https://www.aleqt.com/2017/03/24/article_1156706.html

ما ناب به أتمها حالا في السورة، وأعلاها درجة في القوة، تغير الحال من سعة إلى ضيق، وزيادة إلى الزمان، ولقي في كل عمره الإنسان، عوارض الهم ونوازل الغم...وحدوثهما يكون بأسباب نقصان، وعلو إلى انحطاط، والله سبحانه أخبرنا أن ذلك إحدى العقوبات التي تهدد بها وخوف منها، مصداقا لقوله تعالى: << وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ>>[1] .

تورط الحتوف، وسهلت المحن ركوب كل مخوف الذي بي من تقسم القلب وحرج الصدر، يسومانني إلى ما ذكرته، ويبعثانني إلى مثل ما قدمته. فأشغل نفسي في بعض الأوقات بالنظر في أخبار الماضين وأحاديث السالفين، فربما أسلتْ ذا شجن، وتأسّى بمضمنها ممتحن، فأنا في ذلك كغريق اللجة بما يجد يتعلق، ويتشبث طلبا للحياة بما لحق". يتضح من حديث أبي الفرج أنه كان يقاسي حالة من الاغتراب النفسي، فحاول أن يتأسى بأضرابه من الغرباء الذين نزحوا عن ديارهم مخلفين وراءهم الأهل والخلان، حاملين من الأشجان ما تنوء عن حمله صدورهم، بأسرارهم وأودعوا شجوهم جدران الحانات والبساتين والمساجد والمعابد والشجر والحجر.

ث- الفكرة التي تبناها المؤلف

الفكرة التي قد ابتدعها أبي الفرج الأصفهاني، والتي لا أحسب قد سبقه إليها من أحد والتي أراها أنا شخصيا ابتكارا ينم عن عبقرية الرجل ونبوغه المتفرد، فهي ناتجة عن حس إبداعي متميز، من خلال غوصه في أعماق الذات الإنسانية وعبر خطرات المبدعين المغتربين التي سجلوها شعرا أو نثرا على جدران المعابد والمساجد والبساتين، وعلى الشجر والحجر، مستخدمين ما أتيح لهم من أدوات، ليحفروا ما اعتمل به وجدانهم من حس الغربة والاغتراب في تلك الأماكن، وقد لخص أبو الفرج فكرة كتابه في قوله: "وقد جمعت في هذا الكتاب ما وقع إلي وعرفته وسمعت به وشاهدته من أخبار من قال شعرا في غربة، ونطق

[1]- البقرة الآية 155.

عما به من كربة، وأعلن الشكوى بوجده إلى كل مشرد عن أوطانه، ونازح الدار عن إخوانه، فكتب بما لقي على الجدران، وباح بسره في كل حانة وبستان، إذ كان ذلك قد صار عادة الغرباء في كل بلد ومقصد، وعلامة بينهم في كل محضر ومشهد.[1]

ولقد حفر الأصفهاني– بعمله هذا – وجدان المهمشين والمنسين من الغرباء في ذاكرة التاريخ، فاستحال الهامش متنا.

وحري بالذكر أن مصطلحي المتن والهامش من المصطلحات الحديثة التي ظهرت في سبعينات القرن العشرين في كنف الدارسات الاجتماعية والاقتصادية، ثم انتقلت بالضرورة إلى الحقل الأدبي العاكس لمختلف جوانب النفس البشرية وما يتعلق بها، ولعل الغرباء أكثر البشر استشعارا بالتهميش والإقصاء خارج دائرة المتن المتمثل في عمق مركزية النسق الإنساني بسياقاته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وقد حاول هؤلاء المهمشون أن يخرجوا إلى دائرة الضوء باستقطاب كافة أطراف المجتمع إلى عمق بوتقة شعورهم، وأتى أبو الفرج ليكلل جهدهم بالنجاح ويخصص لهم مصنفا يجذبهم من خلاله إلى لب المتن، ليجعل لهم مكانا مميزا في ذاكرة الثقافة العربية.

لقد فعل أبو الفرج ذلك في القرن الرابع الهجري قبل ما يربو كثيرا على عشرة قرون، ليسبق بذائقته النقدية وحسه الإبداعي علماء الاجتماع المحدثين أمثال أليكسيس دي توكفيل وإميل دوركهايم، والروائيين أمثال فيودور كافكا، والفلاسفة من أمثال كيركيغارد وفريدريك نيتشه، وكاتبة كجوليا كريستيفا[2] التي أصدرت كتابها "غرباء على أنفسنا" عام 1988 محاولة من خلاله رصد حالات المنفيين والأجانب والغرباء، وإجراء تحليل نفسي لأدق التفاصيل التي يلاقيها المغتربون كاللغة، ممارستهم لها، وكونها حاجزا نفسيا يسهم في إقصائهم ويعوق

[1]- أدب الغرباء، ص21.
[2]- جوليا كريستيفا، الغريب بداخلنا، دار النشر فايارد 1988.

تواصلهم مع الآخر، إلى غير ذلك من أشكال المعاناة اليومية لعذابات المغتربين، فقد سبق أبو الفرج هؤلاء جميعا في عنايته بالغربة والاغتراب، وانعكاساتهما على النفس البشرية.

واللافت للانتباه أن أبا الفرج ساوى في حس الاغتراب بين الغرباء من المهمشين المجهولين، والأعلام المبرزين المشهورين الذين أظهر لهم وجها لم يره الناس من قبل، ما جعله يدرجهم في صفوف المهمشين، إنه شعورا باغتراب الذات الذي يفوق في قسوته غربة المكان. فاحتوى الكتاب على ستة وسبعين خبرا للغرباء، بعضها لخلفاء وقادة، كأبي جعفر المنصور، وهارون الرشيد، والمأمون، والواثق، والمتوكل، والمقتدر بالله، والوزير المهلبي، وبعضها لشعراء كأبي نواس وأبي العتاهية، وعبد الله بن المعتز وعلى بن الجهم. والبعض الآخر لغرباء مجهولين جمعه أبو الفرج مما شاهده بنفسه أو رواه له غيره من جداريات على حوائط المساجد والكنائس والأديرة والقصور والدور والمقابر والبساتين، في أقاليم ومدن الحضارة العربية الإسلامية مثل: سامراء والكوفة والبصرة والرها وحمص وظفار والإسكندرية وسمرقند، والشام واليمن والحجاز "تكاد تدور كلها في فلك واحد: غريب مأزوم غلبته الفاقة، أو استبد به الهوى والشوق لحبيبته شط به المزار بعيدا عنها، فلجأ إلى التعبير عن معاناته بكتابة أبيات على حائط ،أو صخرة، أو ما شابه ذلك".[1]

فطرافة الفكرة لا تكمن في موضوع الغربة، وإنما في آلية التعبير عن الموضوع بطريقة تبادل المواقع بين المتن والهامش، مما أكسب الكتاب العديد من القيم الدلالية التي خلا منها غيره من الكتب التي تناولت الحنين إلى الأوطان، وتراثنا العربي غنى بها مثل: " حنين الإبل إلى الأوطان" لربيعة البصري، و"حب الوطن" لعمرو بن بحر، و"الشوق إلى الأوطان" لأبي حاتم سهيل بن محمد السجستاني، و"حب الأوطان" لأبى الفضل بن أبي طاهر، و"الحنين إلى الأوطان" لموسى بن عيسى الكسروي، و"الحنين إلى الأوطان" للحسن بن

[1]- الغربة والغرباء في ديوان الشعر العربي، د.جابر قميحة، دراسة منشورة على موقع رابطة أدباء الشام،http://www.odabasham.net

عبد الرحمن ابن خلاد الرامهزي، و"النزوع إلى الأوطان" لأبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور ابن السمعاني.[1]

ج- المصادر التي اعتمد عليها أبو الفرج الأصفهاني في جمع أخباره :

جمع أبو الفرج من مصادر عدة تلتقي جميعها في تصوير أحوال الغرباء، فبعضها كتابات قرأها بنفسه، وبعضها أخبار رويت له، وقد أشار في مقدمته إلى المصادر التي اعتمدها في جمع أخباره فقال: " وجمعت فيه ما وقع إلي وعرفته، وسمعت به وشاهدته، من أخبار من قال شعرا في غربة، ونطق عما به من كربة، وأعلن الشكوى بوجده إلى كل مشرد عن أوطانه، ونازح الدار عن، فكتب بما لقي على الجدران، وباح بسره في كل حانة وبستان، إذ كان ذلك عادة الغرباء في كل بلد و مقصد، وعلامة بينهم في كل محضر ومشهد". وبناء على ما ذكره أبو الفرج يمكن تصنيف مصادر الأخبار في الكتاب إلى شقين: أخبار اطلع عليها أبو الفرج وجمعها بنفسها، وأخبار رويت له من آخرين، وفيما يلي عرض لتلك المصادر.

من بينها أخبار اطلع عليها أبو الفرج وجمعها بنفسها، وهي الأخبار التي اعتمد فيها أبو الفرج على قراءته الشخصية من مصادر متنوعة، فمنها ما قرأه على فناء مسجد، كما في الخبر التاسع، يقول أبو الفرج: "وقرأت على فناء المسجد الجامع بمتوث، وهي مدينة بين سوق الأهواز و قرقوب، عند اجتيازي بها مكتوبا: حضر المؤمل بن جعفر البندنيجي في شهر رمضان من سنة سبع وعشرين وثلاث مئة وهو يقول: كلنا نسمع أهل العلم يقولون: فقد الأحبة في الأوطان غربة، فكيف إذا اجتمعت الغربة وفقد الأحبة".

وجملة الأمر أن الذي عرفته من حال الدنيا أنه لا يفي فرحها بترحها، فقلت:

يا مِنْ عَلَى الدُّنْيا بِجَاذِبٍ وَعَلَى زَخارِفِهَا يُغَاضِبُ

[1]- الحنين إلى الأوطان، محمد بن سهيل بن المرزبان الكرخي البغدادي، ت.جليل العطية، انظر مقدمة المحقق.

لَا تَطْلُبْنَ و صَالَهَا	لَيْسَتْ لِصَاحَبَهَا بِصَاحِبِ
بَيَّنَا تِرَاهَا عِنْدَه	إِذْ فَارِقَتُهُ وَلَمْ تُرَاقِبْ
إِنَّ ِي خُبِرْتِ حَديثَهَا	يا صَاحَ مِنْ طُولِ التَّجَارِبِ

وإذا تحته مكتوب بغير ذلك الخط:

صَدَّقْتِ صَدَّقْتِ وَعِنْدَي الْخَبَرَ	سأحذر مِنْهَا رُكوبُ الْخَطَرِ
وَأَحْمِلُ نَفْسُي عَلَى حالَةٍ	فَإِمَّا اِنْتِفاعً وَإِمَّا ضَرَرَ [1]

وأثناء وجود أبي الفرج في المسجد الجامع لقرية تُدْعى "دسكرة الملك" إحدى القرى الواقعة في طرق خراسان، استرعى انتباهه ما خطه أحد الغرباء على حائط المسجد، يقول أبو الفرج في الحبر الثاني عشر: "وقرأت على حائط المسجد الجامع بدسكرة الملك: حضر فلان بن فلان الصروي في سنة ثلاث وخمسين وثلاث مئة، وهو يقول:

سَقَى اللَّهُ أَيَّامُ التَّوَاصُلِ غَيْثُهُ	وَرْدٍ إِلَى الْأَوْطَانِ كُلُّ غَرِيبِ
فَلَا خَيْرً فِي دُنْيا بِغَيْرَ تَوَاصُلً	وَلَا خَيْرً فِي عَيْشٍ بِغَيْرَ حَبيبَ [2]

ومن الأخبار ما قرأه أبو الفرج على حائط شاهد لدير، وشاهد الدير هو البيت الذي يبنى على يمين الكنيسة يوضع فيه ذخائر الشهداء، وفي ذلك يقول: "وخرجت أنا وأبو الفتح أحمد بن إبراهيم بن علي بن عيسى–رحمه الله– ماضيين إلى دير الثعالب في يوم من سنة خمس وخمسين ثلاثمائة للنزهة ومشاهدة اجتماع النصارى هناك والشرب على نهر يزدجرد الذي يجري على باب هذا الدير.فينا نحن نطوف الدير، ومعنا جماعة من أولاد الكتاب النصارى وأحداثهم، وإذا بفتاة كأنها الدينار المنقوش كما يقال، تتمايل تتثنى كغصن ريحان في نسيم شمال، فضربت بيدها إلى يد أبي الفتح وقالت: يا سيدي، تعال اقرأ هذا الشعر المكتوب على حائط بيت الشاهد...[3]

[1]- أدب الغرباء، ص32،33.
[2]- أدب الغرباء، ص33،ص34.
[3]- المصدر نفسه، الخبر الثالث عشر، ص34،36.

كما أثبت أبو الفرج في أخباره ما قرأه على الجدران في أحد الدور القديمة، فيقول في الخبر الحادي والأربعين: "وخرجنا يوما من دارنا بكرم المعرش، فاجتزت بدار أبي المادرائي الكاتب. وقد كان الخراب استمر عليها، على الجص مكتوبا:

يا مَنْزِلِ الْقَوْمِ الَّذِينَ	**تَفَرَّقْتِ بِهُمْ الْمَنَازِلُ**
أَصْبَحَتْ بَعْدَ عِمَارَةٍ	**قَفْرَا تُحْرِقُكَ الشَّمَائِلَ**
فَلَئِنْ رَأَيْتِكَ مُوحَشًا	**فِيمَا رَأَيْتُ وَأَنْتَ آهِلُ**[1]

ومما قرأه أبو الفرج على حائط بستان ما ذكره في الخبر الحادي والثلاثين: "وقرأت أنا أيضا على حائط بستان على نهر الأبلة هذين البيتين:

وما زاد قربُ الدار إلاّ صبابةٌ	**إليكِ، ولكنّ المزار بعيدُ**
فلا يُبْعدنكِ الله يا فَوْزُ إنّني	**أبيتُ وقلبي باللقاءِ عميدُ**

وتحته مكتوب: إن كان لك بخت ستفطن، وإن فطنت وتغافلت فما حيلتي؟[2]

ومن المصادر التي استقى منها أبو الفرج أخباره كذلك ما قرأه مسطورا في الكتب، كما في الخبر التاسع والخمسين، يقول أبو الفرج: وقرأت في كتاب صنفه القاضي أبو الحسين عمر بن محمد بن يوسف سماه " كتاب الفرج بعد الشدة ". قال : روي لنا عن العتبي قال: حدثني بعض مشايخنا قال: أتيت السند، فدخلت خانا، فإني لأدور فيه إذ قرأت كتابا في بعض أروقته: يقول علي بن محمد ابن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي : مشيت إلى هذا الموضع حافيا، حتى انتعلت الدم، وأنا قول:

عَسَى مَشْرَبُ يَصْفُو فَيَرْوِيَ ظِمَاءَةَ	**أَطَالُ صَدَّاهَا الْمَشْرَبِ الْمُتَكَدِّرَ**
عَسَى بِالْجُلُودِ الْعَارِيَاتِ سَتَكْتَسِي	**وبالمستذل المستضام سَيَنْصُرُ**
عَسَى جَابِرُ الْعَظْمِ الْكَسِيرِ بِلَطْفِهِ	**سَيَرْتَاحُ لِلْعَظْمِ الْكَسِيرِ فَيُجْبِرُ**

[1]- المصدر نفسه، ص59.

[2]- أدب الغرباء، ص51،52.

عَسَى اللهَ ، لَا تَيْأَسْ مِنَ اللهِ إِنَّه يَهُونُ عَلَيه مَا يَجِلُّ وَيُكْبِرُ [1]

وكما أشرنا سابقا، لم تكن غاية أبي الفرج من تلك الأخبار التوثيقية بقدر ما كانت وجدانية إبداعية، لذا نجده في الخبر السادس يذكر أنه قرأه في كتاب دون أن يسمى الكتاب ، أو صاحبه، فيقول: "وقرأت في كتاب: خرج عبد الله بن جعفر متنزها، فأدركه المقيل فقال تحت شجرة...[2]

وكانت الرقاع ومن بين المصادر التي جمع منها أبو الفرج أخباره، ففي الخبر العاشر يقول: "وكنت بجامع الرصافة في مدينة السلام يوم جمعة... فمرت بي رقعة قد حدف بها، كما تفعل العامة برقاع الدعاء. فأخذتها غير معتمد، فإذا فيها بخط مليح في معنى خطوط الكتاب:

رَحِمَ اللهُ مَنْ دَعَا لِغَرِيبِ مُدْنَفٍ قَدْ جَفَاهُ كُلُّ حَبِيبِ
وَرَمَاهُ الزّمانَ مِنْ كُلُّ قطرِ فَهُوَ لَاشك مَيْتٌ عَنِ الْقَرِيبِ [3]

ح- روايات نقلت شفاهة للأصفهاني

تعد الرواية الشق الثاني من مصادر الأخبار في كتاب أدب الغرباء، وكان الأصفهاني-فيما روى له من أخبار- حريصا على ذكر سند الرواية حتى يصل إلى مصدر الخبر، لكنه لم يجهد نفسه في التثبت من صحتها، كما لم يبد رأيه فيما جمع من أخبار، ولم يعقب عليها بشرح أو رفض أو قبول، حتى وإن غلبت على بعضها مسحة غرائبية، إذ أن هدفه من الكتاب رسم صورة كاملة لأحوال الغرباء كما صورتها آدابهم، ولم تكن غايته تأريخية، أو توثيقية.

وكما تعددت طرائق الرواية وأسانيدها في الكتاب، فهناك أخبار يرويها للأصفهاني الشخص الذي شاهدها أو وقعت له، وقد ينص على اسم محدثه فيكون معلوما للقارئ، وقد

[1]- المصدر نفسه، ص77،78.
[2]- المصدر نفسه، ص28،29.
[3]- المصدر نفسه، ص33.

لا يعنى بذكر اسمه ويكتفي بالإشارة إليه فيظل مجهولا، وهناك أخبار أتت عن طريق سند من الرواة،

وإن كان أبو الفرج كما ذكرنا لم يعن بالتثبيت من صحة تلك الأخبار أو موثوقية أسانيدها، إلا أنه كان حريصا على تسجيلها كما سمعها.

ومن الأخبار التي حدثه بها صاحبها وقد نص أبو الفرج على اسم صاحب الخبر، ما ورد في الخبر الرابع عشر:[1] حدثني أبو محمد حمزة بن القاسم الشامي، قال: اجتزت بكنيسة الرها عند مسيري إلى العراق.

فدخلتها لأشاهد ما كنت أسمعه عنها. فبينما أنا في تطوافي، إذ رأيت على ركن من أركانها مكتوبا بالخمرة: حضر فلان بن فلان وهو يقول: من إقبال ذي الفطنة، إذا ركبته المحنة انقطاع الحياة، وحضور الوفاء. وأشد العذاب تطاول الأعمار في ظل الإدبار.وأنا القائل:

وَلِي هِمَّة أَدْنَى مَنَازِلِهَا السُّهَا	**وَنَفْسُ تَعَالَى فِي الْمَكَارِم وَالنُّهَى**
وَقَدْ كُنْتُ ذا حالٍ بمرو قريبَةٍ	**فَبُلِّغتِ الْأَيَّامَ بِي بَيْعَة الرَّها**
وَلَوْ كُنْتُ مَعْرُوفا بِهَا لَمْ أَقِمْ بِهَا	**وَلَكِنَّنِي أَصْبَحَتْ ذا غُرْبَة بِهَا**
وَمِنْ عَادَةِ الْأَيَّام إِبْعَادُ مُصْطَفى	**وَتَفْرِيقُ مَجْمُوعٌ وَتَنْغِيصُ مُشْتَهَى**

فاستحسنت النظم والنثر وحفظتهما.[2]

ويلاحظ أن أبا الفرج حريص في بعض الأخبار على ذكر كافة التفاصيل التي تعين على فهم أحوال الغرباء ودواخل نفوسهم، حتى وإن كان الخبر طويلا، كما في الخبر الخامس، يقول أبو الفرج: "وحدثني أبو عبد الله الواسطي الشاعر المعروف بابن الآجري قال: كنت أعاشر جماعة من أهل الظرف وأولاد الرؤساء ونجتمع على الشراب دائما. فدعانا فتى منهم إلى العمر الذي في أسفل مدينة واسط، ويعرف العمر بعمر سفر يشوع. فمضينا

[1]- أدب الغرباء ، ص14.
[2]- أدب الغرباء، ص36،37.

ومعنا من الغناء والآلة والشرب كل شيء ظريف، وأقمنا بالعمر ثلاثة أيام، ومضت لنا به أوقات طيبة، وانصرفنا في اليوم الرابع وتفرقنا بعد ذلك للمعايش والمتصرفات. فلما كان ذلك بشهور دعينا إلى العمر، فلما حصلنا في القلاية التي كنا شربنا فيها في تلك الدفعة قال لنا الفتى: ألا أخبركم بحالي بعدكم؟ قلنا: بلى. قال: إنكم لما انصرفتم من عندنا جاءني شاب له رواء ومنظر حسن، ومعه غلام نظيف الوجه في مثل زيه، أحسبه حبيبا له. فقال: أين الفتيان الذين كانوا عندك مجتمعين؟ فقلت: غلسوا في النصراف. فحزن وتبينت الكآبة في وجهه. ثم سألني عن حالكم، وما صنعتم، وكم أقمتم. فحدثته، فانبسط، واستدعى ما أكل هو وصاحبه، وأخذا في الشرب، وطربا ، وأقاما على حالهما ثلاثة أيام، ففعل مثل فعلكم. فلما كان في اليوم الرابع ودعني وأخذ فحمة وكتب على حائط البيت شعرا، وقال: إن عادوا أوفقهم عليه، وانصرف. فنهضنا إلى البيت فإذا هو:

إخوتي إنّي سُمِعْتِ بِكَمْ	**فَقَصَدَتْ الْعُمَرُ مِنْ طَرَبِ**
فَوُجِدْتِ الدَّهْرَ فَرْقَكُمْ	**وَكَذَاكَ الدَّهْرِ ذو نُوَبِ**
وَسَأَلْتِ الْقسَّ مَا فَعُلَوَّا	**فَأَجَابُ الْقسَّ بِالْعَجَبِ**
فَفَعَلْنَا مِثْلُ فِعْلِكُمْ	**وَشربنَا مِنْ دَم الْعِنَبِ**
بِنْتُ كَرَم عُتِقَتِ زَمَنَا	**مُنْذُ عَهْدِ اللاَتِ وَالنّصبِ**
وَجُنِينَا الْحلْوَ مِنْ ثمَرِ	**وَأَكلِنَا يَانِعِ الرَّطْبِ**
وَتُفرِّقْنَا عَلَى مَضَضٍ	**كُلّنَا يَدْعُو بواحربي**

فلما عدنا إلى وسط بحثنا عن الرجل فلم نعرف له خبرا، فعلمنا أنه غريب اجتاز بالبلد.[1]

ومن الأخبار التي لم يذكر فيها اسم محدثه مع علمه به غالبا، ما ورد في الخبر الحادي عشر، فيقول: "وحدثني شيخ لنا قال: قرأت على حائط مقبرة سيبويه مكتوبا:

رحل الأحبّةَ بعد طولِ توجُّع	**ونأى الم ا زرُ فأسلموكَ وأوجعوا**
تركوكَ أوحشَ ما يكون بقَفْرةٍ	**لم يؤنسوكَ، وكربةً لم يدفعوا**[2]

[1]- أدب الغرباء، ص26،27.

[2]- المصدر نفسه، ص33.

ومن قبيل التعميم في مصدر الخبر قوله: "وقال لي شيخ من أهل الكوفة: قرأت على ركن قبة أبي موسى التي عندها هذين البيتين:

وليسَ الرزقُ عن طلب التمنّي	**ولكن إلْقِ دَلْوَكَ في الدِلاءِ**
تجيءُ بملْئِها طو ا رً وطو ا رً	**تجيءُ بحمأةٍ وقليلِ ماءِ**[1]

ومن الأخبار التي لم يحدد أبو الفرج مصدرها قوله: "وروي لنا عن إسحاق بن عبد الله قال: كنت في خدم أبي جعفر. فدخل قصر عبدوية وأنا معه. فقال: أعطني فحمة. فناولته، وكتب هذا الشعر على الحائط...[2]

فعدم اكتراث أبي الفرج بتحديد مصدر الخبر مع علمه به يشير إلى أنه معني في المقام الأول بالحانة الوجدانية للغرباء، خاصة وأن الغريب في الخبر السابق لم تكن غربته غربة مكان، لكنه اغتراب أملاه عليه شعور مسيطر بنهاية وشيكة، وما أراد أبو الفرج من كتابة إلا الغوص في أعماق وجدان الغرباء.

ومن الأخبار التي أوردها أبو الفرج على سبيل التواتر ولم يذكر لها قائلا لا بالإشارة ولا بالتسمية، قوله: "ويقال إنه خرج يحي بن خالد يوما من داره راكبا يريد دار الرشيد، فمر ببعض أفنية قصره، وإذا على الحائط مكتوب:

انعموا آل بَرْمَكٍ	**وانظُروا منتهى هِيَهْ**
واقبوا الدهر أنْ	**يدور عليكم بداهيةْ**

فوجم لذلك ورجع. فدخل عليه أبو نواس في ذلك اليوم فأنشده القصيدة التي مدحه بها وأولها:

أرَبْعَ البِلى إنّ الخشوعَ لبادي	**عليكَ وإنّي لم أخنك وِدادي**

حتى انتهى إلى قوله فيها:

سلامٌ على الدنيا إذا ما فَقِدْتُمُ، بني	**برمكٍ، من ا رئحينَ وغادي**

[1]- المصدر نفسه، الخبر العشرون، ص42.
[2]- المصدر نفسه، ص23،24.

فتطير بذلك أيضا. فلما كان في اليوم الثاني تحول جعفر إلى الدار التي تخير له يحيى نزولها، فإذا هو بهاتف يقول:

تُدَبّرُ بالنجوم ولستَ تدري وربُّ النجم يفعلُ ما يريدُ

فكان أمرهم قريبا.[1]

ولعل سبب تواتر الرواية في الخبر السابق كونها تدور حول المشهورين والمتنفذين من البرامكة، ممن هم متن المجتمع وبؤرة اهتمامه في ذلك الوقت، وبالرغم من ذلك يسيطر حس الاغتراب على يحيى بن خالد البرمكي وهو في القصر المنيف، وتحيطه حاشيته، ويمجده الشعراء، إنها غربة النفس والشعور، وما الهاتف في الخبر السابق إلا حديث النفس، تلك

وتمثل الأخبار التي وردت عن طريق سند من الرواة الكثرة الكاسرة في كتاب أدب الغرباء، كأن يقول في الخبر الأول: "فمن ذلك ما حدثني به أبو عبد الله أحمد بن جيش التمار قال: حدثني أبي، عن بعض ولد أحمد بن هشام، عن أبيه قال...[2]

وكان أبو الفرج إذا نسي أحدا من الرواة نص على ذلك كما في الخبر السادس، والعشرون، فيقول: "وحدثني شيخ من الكتاب – أسماه ونسيت اسمه – قال: قرأت على حائط من أبنية المتوكل في سر من رأى....[3].

خ- أكثر الفئات التي عانت الغربة ووقف عليها الكاتب في مؤلفه

نتعرف على شخصيات الغرباء وتصنيفاتهم التي تتبدى من خلال الآثار التي خلفوها على الجدران وفي كل ساحة انطلاقا من وجدانياتهم، فلم يقتصر أبو الفرج في رصده لوجد الغرباء على فئة بعينها، بل تتبع مختلف فئات المجتمع المكونة للنسيج الاجتماعي في عصره، فأرانا حس الغربة يتسرب إلى نفوس جميع الطوائف حتى الملك في حاشيته، فهناك

[1]- أدب الغرباء، الخبر الرابع و العشرون، ص45.
[2]- المصدر نفسه، ص23.
[3]- أدب الغرباء، ص46،47.

غرباء الملوك، وغرباء الشعراء، وغرباء المتصوفة، وغرباء النساء، فضلا عن مجهولين من الغرباء، وعلى رأس هؤلاء جميعا يأتي أبو الفرج نفسه، الذي أملى عليه حس الاغتراب تصنيف هذا الكتاب.

وفيما يلي عرض لنماذج من فئات الغرباء.

خ.1- غرباء العلماء:

ومن بينهم أبو الفرج الأصفهاني والذي يعد الغريب الأول في كتاب "أدب الغرباء"، وقد أشرنا سابقا إلى أن سيطرة حس الاغتراب النفسي والمكاني هو ما دفعه إلى تصنيف الكتاب، إذ صرح في مقدمته بأنه ممزق القلب حرج الصدر، ملتمسا في كتابه السلوى بحال أقرانه من منغصي العيش، وكأنه في حالة تناص وجداني مع الخنساء في قولها:

ولَوْلا كَثْرَةُ الباكينَ حَوْلي على إخوانهم لقتلتُ نفسي

يقول أبو الفرج: "وربما قاد الفراغ إلى التشاغل بغير مهم، ودعا التفرد إلى مقاربة النغص، وحملت الحاجة إلى تورط الحتوف، وسهلت المحن ركوب كل مخوف. والذي بي من تقسم القلب وحرج الصدر، يسومانني إلى ما ذكرته، ويبعثانني إلى مثل ما قدمته. فأشغل نفسي في بعض الأوقات بالنظر في أخبار الماضين وأحاديث السالفين، فربما أسلت ذا شجن، وتأسى بمتضمنها ممتحن، فأنا في ذلك كغريق اللجة بما يجد يتعلق، ويتشبث طلبا للحياة بما لحق.[1]

وتشير نصوص الكتاب إلى كثرة أسفار أبي الفرج، باحثا عن ذاته محاولا أن يلملم أوصالها الممزقة، يهفو إلى تحقيق كينونته هفو الظمآن إلى برد الماء، أو الولهان إلى ملاقاة الحبيب، متلمسا السلوى في نصوص الغرباء وأخبار السالفين، ولكن على ما يبدو أن ما به من شجو

[1]- مؤمنة حمزة عبد الرحمن، نحيب الذات و إشراقات الفن، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بالإسكندرية، ص545.

عصي على التأسي، وكأن السلوى سراب يغريه بكثرة الترحال، عله يجد ضالته لاهثا خلف بصيص الأمل، ولكن سرعان ما ينسرب هذا الأمل انسراب الماء في الصحاري، ولذا استشعر حاله كغريق اللجة الذي يعلق بما يجد متشبثا بالحياة.

ويقول أبو الفرج: "وكنت انحدرت إلى البصرة منذ سنيات. فلما وردتها صعدت في الفيض إلى سكة قريش أطلب منزلا أسكنه، لأنني كنت غريبا لا أعرف أحدا من أهلها، إلا من كنت أسمع بذكره، ولا آنس به. فدلني رجل على خان، فصرت إليه، واكتريت منه بيتا، وأقمت بالبصرة أياما. ثم خرجت عنها طالبا حصن مهدي، وكتبت هذه الأبيات على حائط البيت الذي كنت أسكنه:

الْحَمْدُ لِلّهِ عَلَى مَا أرَى	**مِنْ ضَيَّعْتِي مَا بَيْنَ هَذا الْوَرَى**
أصَارَنِي الدَّهْرَ إِلَى حالَةِ	**يُعْدِمُ فِيهَا الضَّيْفُ عِنْدَي الْقَرَى**
بُدِّلْتِ مِنْ بَعْدَ الْغِنى حاجَة	**إِلَى كلابِ يَلْبَسُونَ الفرا**
أصْبَحَ أدُمُ السُّوقِ لِي مَأكَلا	**وَصَارَ خُبْزُ الْبَيْتِ خُبْزَ الشرا**
مِنْ بَعْدَ مَلِكِي مَنْزِلا مُبْهِجَا	**سُكَنْتِ بَيْتًا مِنْ بُيُوتِ الْكَرا**
فَكَيْفَ أَلْفى ضَاحِكًا لاَهِيًا	**وَكَيْفَ أحْظى بِلَذِيذِ الْكَرَى**
سُبْحَانَ مَنْ يَعْلَمُ مَا خَلْفَنَا	**وَتَحْتَ أيْدِينَا وَتَحْتَ الثرى**
وَالْحَمْدُ لِلّهِ عَلَى مَا أرَى	**وَانْقَطِعَ الْخُطْبُ وَزَالَ المرا**

فما أدري أهو باق إلى اليوم أم درس.[1]

الأبيات السابقة تعبر تعبيرا دقيقا عن تبدل الحال بأبي الفرج، حيث تحول من الغنى إلى الفقر، وألجأته الحاجة إلى اللئام، فأنى له السعادة والسكينة وهو في غمرة تلك المفارقات التي تدع الحليم حيران، فليس بوسعه إلا أن يتعجب مسبحا الخالق المدبر الذي يعلم ما بين أيديهم وما تحت الثرى !

وفي إحدى أسفاره نزل أبو الفرج قرية باجسرا، وهي قرية كبيرة بنواحي بغداد، وحوصرت القرية وهو بداخلها، فكتب شعرا على حائط الجامع مسجدها يعبر فيه عن ضيقه

[1]- أدب الغرباء، الخبر الخامس عشر، ص37،39.

وتأزمه، ويناجي ربه لانفراج تلك الأزمة، يقول أبو الفرج: "قال صاحب هذا الكتاب : وشخصتُ إلى باجِسرا في بعض المتصرّفات فأقمتُ بها مدَّةً طالت في غير فائدة، ثم أردت الانحدار عنها . فأعوزني ذلك لمحاصرة بني شيبان إيَّاها. كنتُ ألازم المسجد الجامع لأنَّه كان مطلا على سامرا، وله فسحة .فحضرتْني هذه الأبيات فكتبتها على حائط المسجد، وهي:

أقولُ والنفسُ ألوفٌ حَسْرى	**والعينُ منْ طولِ البكاءِ عَبْرى**
وقد أنارتْ في الظلامِ الشِّعْرى	**وانْحدرتْ بناتُ نعشِ الكُبْرى**
يا ربّ خلِّصْني من باجِسْرى	**وابدِلْ بها يا ربِّ دارا أخرى[1]**

ثم فرج الله تعالى، وانصرفت منها سليما.

خ.2- غرباء الأمراء و الخلفاء

مما يسترعي الانتباه أن أبا الفرج بدأ كتابه بغرباء الأمراء، ليبعث برسالة تسرية لكل غريب، حتى لا تنال الغربة من همته، ولا تثبط عزيمته، فالغربة تطال الأمير في حاشيته، كما تتملك الفقير في عزلته، فيصور الخبر الأول لقطة من لقطات الغربة في حياة الخليفة المأمون، في إحدى غزواته للروم، إذ يسير الخليفة على درب الغرباء، ويأبى أن يغادر المكان قبل أن يسجل مشاعره على جد ا رنه، يقول أبو الفرج" :فمن ذلك ما حدّثني به أبو عبد الله أحمد بن جيش التمّار قال :حدثني أبي، عن بعض ولد أحمد بن هشام، عن أبيه قال :كنتُ في جملة عسكر المأمون حين خرج إلى بلد الروم، فدخل وأنا معه إلى كنيسةٍ قديمة البناء بالشام، عجيبةِ الصُّور .فلم يزل يطوف بها، فلمّا أراد الخروجَ قال لي : مِنْ شأن الغرباء في الأسفار ومنْ نزحت به الدار عن إخوانه أترابه، إذا دخل موضعاً مذكورا، ومشهداً مشهوراً، أن يجعل لنفسه فيه أثرا، تبرُّكاً بدُعاء ذوي الغُربة، وأهل التقطُّع

[1]- المصدر نفسه، الخبر الخامس والخمسون، ص73،84.

والسياحة .وقد أحببْتُ أن أدخل في الجملة، فابْغ لي دواةً .فكتب على ما بين باب المذبح هذه الأبيات:

يا مَعْشَرَ الْغرباءِ رَدَّكُمْ	**وَلَقِيتُم الْأَخْبَارَ عَنْ قُرْبِ**
قَلْبُي عَلَيكُمْ مُشْفِقُ وَجِلٌ	**فَشَفَا الْإِلَهِ بِحِفْظِكُمْ قَلْبِي**
إِنَّي كُتِبْتِ لِكَيْ أَسَاعِدَكُمْ	**فَإِذَا قَرَأْتُم فَا عُرِفُوا كُتُبَي [1]**

لقد أشار المأمون إلى عادة من عادات الغرباء، وهي الكتابة على الجدران، وانتبه إلى البعد النفسي لتلك العادة وهو تأكيد الذات، فالغريب يرفض أن يكون في طي النسيان، فيحفر خطرات نفسه في ذاكرة الوجود المطلق، ليجعل من شعوره الخاص حالة عامة، ويخرج بأحاسيسه من شرنقة الذات إلى فضاء المجموع، وهو ما أشرنا إليه سابقا بتحويل الهامش متنا. ومن المفارقات أن تخرج الغربة بالمأمون من مركز المتن إلى حافة الهامش، وشأن أي غريب يحاول المأمون أن يعيد نفسه إلى المركز بصنيع الغرباء حيث الكتابة على الجدران.

ويأتي الخبر الثاني في الكتاب ليجعل في صدارة الغرباء غريبا في عقر داره، وهو أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي الذي بنى مدينة السلام بغداد، وزينها بالقصور الشامخة ومنها قصر عبدويه المنسوب إلى رجل من الأزد يقال له عبدوية، وكان من وجوه رجال الدولة، ونسب إليه لأن الخليفة صير إليه النفقة على القصر والإشراف على بنائه.[2]

فدخل أبو جعفر القصر، وكأنه استشعر غربته في الدنيا، وتذكر أنه عابر سبيل، ففعل فعل الغرباء في كتابة خواطرهم على الجدران، وكتب أبياتا للبيد تعبر عن مكنون ذاته، يقول أبو الفرج: "وروي لنا عن إسحاق بن عبد الله قال: كنت في خدم أبي جعفر. فدخل قصر عبدويه وأنا معه. فقال أعطني فحمة. فناولته، وكتب هذا الشعر على الحائط:

الْمَرْءُ يَأمُلُ أنْ يَعِيشَ	**وَطُولُ عَيْشٍ قَدْ يَضُرُّهُ**
تُودِي بَشَاشَتَهُ وَيُعْقِبُ	**بَعْدَ حلْوِ الْعَيْشِ مَرَّهُ**
وتسوؤه الْأَيَّامَ حَتّى	**لَا يرى شَيئَا يُسْرَهُ**

[1]- أدب الغرباء، ص23.

[2]- انظر، البلدان،لابن إسحاق الهمذاني، ت. يوسف الهادي،ط،بيروت، الطبعة الأولى،1416ه،1996م،ج1، ص315.

كَمْ شَامِتٍ بي إنْ هَلَكْتِ وَقائِلٍ لله دُرَّهُ

قال: فما لبث إلا قليلا. والشعر للبيد.[1]

ويأتي الخبر الثالث بغريب آخر من الخلفاء، وهو الخليفة الواثق الذي تملكه حس الاغتراب في غمرة مجلس السمر والشراب، فآثر أن يسجل حالة من حالات القلق الوجودي الذي ينتاب الإنسان خشية سلب النعمة وتبدل الحال، فحفر مشاعره على جدار القصر، يقول أبو الفرج: "وحدثني أبو الحسن علي بن يحيى المنجم، عن أبيه قال: أخذ الواثق يوما بيدي يتكئ عليها، ويطوف على الأبنية بسر من رأى ليختار منها بيتا يشرب فيه في ذلك اليوم. فلما انتهى إلى البيت المعروف بالمختار استحسنه، وجعل يتأمله وقال لي: هل رأيت أحسن من هذا البيت؟ قلت: يمتع الله أمير المؤمنين به، وتكلمت بما حضرني. وكانت فيه صور عجيبة، من جملتها صورة بيعة فيها الرهبان، وأحسنها صورة شهار البيعة، ثم أمر بفرش الموضع وإصلاح المجلس، وحضر الندماء والمغنون، وأخذنا في الشرب، فلما انتشى أخذ سكينا لطيفا كانت بين يديه، وكتب على الحائط كأني أراه:

مَا رَأَيْنَا كَبَهجَةِ الْمُخْتَار	**لَا وَلَا مِثْلُ صُورَةِ الشّهار**
مَجْلِسُ حَفٍّ بِالسُّرُور	**وَالنَّرْجِسَ وَالْآسَّ و الْغَنَا وَالْبَهَارَ**
لَيْسَ فِيه عَيْبٌ سِوَى أَنَّ	**مَا فِيه سيفنيه نَازِلُ الْمِقْدَارِ [2]**

فقلنا: يعيذ الله أمير المؤمنين ودولته من هذا. ووجمنا. فقال: شأنكم وما واتاكم، فما يقدم قولي خيرا ولا يؤخر شرا. قال: واجتزت منذ سنيات بسر من رأى، فرأيت بقايا هذا البيت وعلى حائط من حيطانه مكتوب:

هَذِي دَيَّارُ مُلُوكٍ دُبِّرُوا زَمَنًا	**أَمَرُّ الْبِلادَ وَكَانُوا سَادَةَ الْعُرْبِ**
عَصَى الزّمانُ لِهُمْ مِنْ بَعْدَ طَاعَتِهِ	**فَانْظُرْ إِلَى فِعْلِهِ بِالْجَوْسَقِ الْخَرِبِ**
وبركوارا و بِالْمُخْتَارِ قَدْ خُلِيَا	**مِنْ ذَلِكَ الْعَزِّ وَالسُّلْطَانَ وَالرُّتَبَ [3]**

[1]- أدب الغرباء، ص23،24.
[2]- المصدر السابق ، ص24.
[3]- أدب الغرباء، ص24.26.

وأثناء تطواف الخليفة المتوكل بكنائس بلاد الشام، إذ يطرب لشجو غريب مجهول، سجل أناته على جدار إحدى الكنائس، يقول أبو الفرج: "وحدثني أبو بكر محمد بن عمر قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد ابن الفضل النحوي، قال: حدثني بعض بني حمدون عن شيوخه قال: كنت مع المتوكل لما شخص إلى الشام، فلما صرنا حمدون عن شيوخه قال: أريد أن أطوف كنائس الرهبان كلها، والموضع المعروف بالفراديس إذا وصلنا إليها فإني كنت أسمع بطيب هذا الموضع. فقلت: الرأي ما رآه أمير المؤمنين. ثم إنا أنزلنا منزلا بين كنائس عظيمة وآثار قديمة، ترتاح النفوس إليها، ويشتهي من ينزلها ألا يرتحل عنها. فلما استراح من نصب الركوب استداني وقال: هل لك في التطواف؟ قلت: كما أمر المؤمنين. فأخذ بيدي، ولم يزل يستقري تلك الكنائس والديارات، ويشاهد فيها من عجائب الصور وفاخر الآلة،...وهو يمشي، إذ لمح كتابة على الحائط الكنيسة، فقربنا من ذلك فإذا هو: حضر الغريب المشرد الحريب وهو يقول:

آلَ أَمْرُي إِلّي أَخُسُّ الْأُمُورَ	**وَتُبُدِّلْتِ كُرْبَة بِسُرُور**
وَاِعْتَرَتْنِي مِنَ الزّمانِ خُطُوبً	**تَتَبَارَيْ فِي هَتِكَةِ الْمَسْتُور**
نَفْسُ صَبْرًا لِحادِثَاتِ اللَّيَالِي	**كُلُّ شَيْءِ يُذِلُّ لِلْمَقْدُورِ [1]**

فقال: ويحك! ما أطراف هذا المسكين، وما أحرق هذا الأنين.

خ.3- غرباء الشعراء والملهمين

زمن غرباء الخلفاء إلى غرباء الشعراء، وفي طليعتهم شاعر من سلالة الخلفاء، بل تقلد الخلافة بالفعل لكنه خليفة اليوم والليلة كما يلقبونه، وهو عبد الله بن المعتز، حيث تقلد الخلافة من بعده، والغربة ديدان الشعراء فهم غرباء الروح التي رافقتهم من دفء الرحم إلى جوف الثرى، فنرى ابن المعتز يشدو الغرباء.

[1]- المصدر نفسه، الخبر الحادي والخمسون، ص64،66.

يقول أبو الفرج: "وحدثني شيخ رأيته في مجلس أبي الطيب أحمد ابن الحسين المتنبي، قال: حدثني أبي قال: كنت أخدم عبد الله بن المعتز، فخرج يوما يتنزه ومعه ندماؤه. باب الحديد وبستان الناعورة، وكان ذلك في آخر أيامه، فرأيته وقد أخذ خرقة وكتب على الجصَّ:

سِيقًا لِظُلَّ زَمانُي	**وَعِيشِي الْمَحْمُودَ**
وَلَا كَلَيْلَةِ وَصْلٍ	**مَرَّتْ بِرَغْم الْحَسُودِ**

فحفظت البيتين وانصرفنا. وضرب الدهر ضرباته، وقتل أبو العباس. وعدت بعد سنين إلى بغداد، فقضي لي دخول البستان، وإذا البيتان بخط أبي العباس قد خفيا، وبقي أثر منهما، وإذا تحته مكتوب:

أفٍّ لِظَلَّ زَمانُي	**وَعِيشِي الْمَنْكُودَ**
فارَقتِ أَهْلِيَّ وَدَاري	**وَصَاحِبِي وَوَدِيدِي**
وَمِنْ هُوِيتِ جِفَانَي	**مُطاوِعًا لِلْحَسُودِ**
يا رَبٌّ مَوْتًا وَإلاّ	**فَرَاحَةٌ مِنْ حَسُودِ** [1]

وهذا علي بن الجهم يئن بأبيات من الشجن المصفى، فيترحم لكل غريب قادته خطاه إلى متاهة الغربة، يقول أبو الفرج: "وذكر إبراهيم بن حميد العطار قال: لما أصابت علي بن الجهم الجراحات في طريق الشام كان فيما يهذي به الليل:

ذَكَرَتْ أَهْلٌ دجيل	**وَأَيْنَ مِنِّي دجيل**
هَلْ زادٌ فِي اللَّيْلِ لَيْلٌ	**أَمْ سَالَ بِالصُّبْحِ سَيَّلَ**

ولما مات وجد هذا الشعر قد كتبه على الحائط:

يا رَحِمَتَا لِلْغَرِيبِ فِي الْبَلَدِ النا	**زِحْ مَاذَا بِنَفْسُه صَنْعًا**
فارَقَ أَحْبابُـهُ فَمَا اِنْتَفَـــــعُوا	**بِالْعَيْشِ مِنْ بَعْدَه وَمَا اِنْتَفَعَا** [2]

خ.4- غربة أصحاب الطريقة أو المتصوفة

يعد التصوف موئلا للمغتربين، وأرضا خصبة نبتت فيها جذور الاغتراب، فاستخدمه الصوفية بمعاينة المختلفة، وعايشوه تجربة وجدانية ووجودية، ذات أبعاد دينية تبدأ بخروج

[1]- أدب الغرباء، الخبر الثامن والثلاثون، ص57،58.
[2]- أدب الغرباء، الخبر الثاني والأربعون، ص59،60.

الإنسان من الجنة، وهبوطه إلى الأرض، فالمتصوف السائح في الأرض بحثا عن المعرفة "غريب الدنيا والآخرة"، إذ يرى أنه اغتراب عن ربه ويحاول جاهدا اجتياز المسافات الحائلة بينهما، فاستهجنه الناس، وثار على حاله ومقاله الفقهاء ورجال الدين المسيطرون على فكر السلطة الحاكمة.[1]

ومما ذكره أبو الفرج لغرباء المتصوفة ما أورده في الخبر السبعين، في سياق محاورة بين صوفيين، حيث يقول: "حدثني أبو الحسن علي الواسطي الصوفي قال: لقيت في طريقي وأنا متوجه إلى أذربيجان فتى عليه زي الصوفية في قاع، لم يكن لنا ثالث إلا الله تعالى. فأنست به وقلت: سلام عليكم. فقال: وعليكم سلام الله ورضوانه. قلت: فمن أنت أيها الرجل، فإني أرى سيماء الخير بينا على وجهك؟ فقال عبد الله السائح في بلاد الله. قلت: زدني معرفة. قال: يكفيك ما سمعت. قلت: فمن أين أقبلت؟ قال: من حيث لا أدري. قلت: فما سبب ضجرك وانقباضك مني وسترك حديثك عني؟ قال: فديتك! أنا لو كان لي فرج في الخروج إليك بقصتي، أو علمت أنك تملك معونتي ، أو تقدر على إعانتي للخصت لك الأمر، ولأقمت لك على ما تشاهده من صورتي العذر. وتركني ومشى. وهو يشهق ويبكي ويقول:

هَلْ إِلَيكُمْ بَعْدَ الْفِرَاقِ مُعَادُي	**وَلَدَيكُمْ لَدَى التَّفَرُّقَ زادَي**
إِنَّ تَكُونُوا رُقِدْتُم اللَّيْلَ إِنَّي	**مُذْ نَأَيْتُم عَنْي قَلِيلُ الرُّقادِ** [2]

ولعل الحس الصوفي لأبي الحسن الواسطي راق لأبي الفرج بتميزه بين أقرانه من المتصوفة، يقول أبو الفرج: "حدثنا أبو الحسن علي بن عبد الله الوسطي الصوفي – وكان حلوا من بين الصوفية – قال: اجتزت بسر من رأى يوما. فقصدت المسجد الجامع، فإني لعلى نحو من ثلث المنارة أقرأ خطوط الناس بحضورهم فأعجب من كثرتها إذ قرأت بين الخطوط: حضر الهارب من الله إليه، والمتوكل في كل خطب عليه، وهو يقول: يا كاشف

[1]- شعبان أحمد بدير، جدلية الاغتراب في الشعر الصوفي، دراسة منشورة، ديوان العرب،.www.diwanalarab.com
[2]- أدب الغرباء ، الخبر السبعون، ص90،91.

الكربة عن أيوب، ومرسل العير إلى يعقوب، فرج هموم الكمد المكروب، وارزقه من فضلك يا وهوب. وفي موضع آخر مكتوب على الجص: حضر علي بن جابر الرازي وهو يقول: معاشر الغرباء والمجتازينَ! لم اللجاجة عادة المحبوبين، والخلاف خلق المعشوقين؟

خَبَرُونَا هَدَاكُمْ اللهَ هَذَا	**قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَاكَ أَهْلِ الْعُلُوم**
فَأَجَابُوا بِغَيْرَ شِيءَ عرفْنَا	**ه ، وَلَمْ يَشْفُ مَا بِنَا مِنْ كُلُوم**
عَجَّلُوا بِالْجَوَابِ حَيَّاكُمْ اللهِ	**وَمَنَوْا بِهِ عَلَى الْمَهْمُوم**

فلم أدر ما أكتب به، وتقاصرت نفسي إلى أن يكون رجلا من أهل الري يسأل أهل العراق عن شيء، فلا يسرعون إلى الجواب عنه. فانصرفت مغتاظا.[1]

خ.5- آثار لغرباء فضلوا عدم الإفصاح

كان لمجهولي الغرباء حظا وافرا من الأخبار التي أوردها أبو الفرج في كتابه، فالغريب محاط بمجاهل عدة، تبدأ من داخله وتنتهي بمحيطه الخارجي بكل أشكاله. ما يفسر اهتمام أبي الفرج بأخبار مجهولة المصدر، إذ لم يكن الهدف من الكتاب تسليط الضوء على الأعلام المبرزين بقدر ما كان يهدف إلى إعادة تنسيق صورة المشهد الاجتماعي ليخرج بهؤلاء المجهولين من هامش المشهد إلى متنه، مستحضرا حالة وجدانية يستوي فيها بني البشر بغض النظر عن موقعهم ،أو مكانتهم، وقد رأيناه بدأ بالأمراء، والخلفاء ليؤكد هذا المفهوم.

ومن أخبار الغرباء المجهولين قول أبي الفرج: "وحدثني رجل من بني نمير يعرف بالأخيطل، شاعر لقيته بنواحي كوثى بمشهد إبراهيم الخليل صلوات الله عليه، قصدها ليمتدح أبا الحسن علي بن مزيد الأسدي، وأنشدني شيئا من شعره وقال: قرأت على صخرة بجزيرة قبرص مكتوبا: يقول فلان بن فلان البغدادي: قذف بي الزمان إلى هذا المكان.

فَهَلْ نَحْوَ بَغْدادِ مُعَادِ فَيَشْفِي	**مُشَوِّقُ وَيَحْظَى بِالزِّيارَةِ زائِرَ**
إِلَى اللهِ أَشْكُو لَا إِلَى النَّاسِ ، إِنَّه	**عَلَى كَشْفٍ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَمِّ قَادِرَ** [1]

[1]- المصدر نفسه ، الخبر الرابع والخمسين، ص72،73.

ولعل الحنين إلى الوطن سيطر على قائل الأبيات لأن غربته مضاعفه، فهو عربي في بلاد العجم، فاحتلت بغداد صدارة المشهد.

وفي الخبر الحادي والعشرين تنزف جراحات الغربة الغائرة بآلام دفينة باحت بها نفس غريب محتضر، يقول أبو الفرج: "وأخبرنا أبو القاسم علي بن محمد بن أبي هذا الكتاب قال حدثني أخي قال: اجتزت بنواحي بلد الروم مما يلي خرشنة، فاجتزت بمدينة حسنة البناء يحيط بها سور من حجر أبيض تخالطه حمرة، ومياه تجري من عيون في داخل الحصن، وأشجار كثيرة الثمر، وظل ثخين تحت شجرة جوز. فأعجبني الموضع، وجلست أحادث رجلا من أهل المدينة، يحسن العربية فقال: كان طرأ إلينا شاب ذكر أنه من أهل العراق، حسن الوجه، نظيف الجملة، غزير الأدب. وكان لا يفارقني. فأقام في بلدنا سنين، ثم مرض فعللته، وقمت بأمره، فلم يلبث أن مات. فحزنني ودفنته في تلك القبة – وأومأ بيده إليها– على قبلة الإسلام. وكان في مرضه كتب على الحائط من البيت الذي كان فيه، ووصى أن يكتب على قبره، فقم لتقرأه. فإذا قد كتب على الحائط:

تُعُسِّفتِ طَولَ السَّيْرِ فِي طَلَبِ الْغِنى	**فَأَدْرَكَنِي رَيْبَ الزّمانِ كَمَا تُرى**
فَيَا لَيْتَ شِعْرَي عَنْ أَخِلّايَ هَلْ بَكَوْا	**لِفَقدِي أَمْ مَا مِنْهُمْ مِنْ بِهِ دَرَى**

قال: فكتبت الأبيات وانصرفت من الموضع حزينا.[2]

خ.6– غرباء النساء

ولم يفت أبو الفرج أن يكشف عن أثر الغربة في النساء، خاصة عند امرأة مشهورة بالشعر والظرف وضرب العود مثل عُلية بنت المهدي أخت هارون الرشيد، إذ اصطحبها هارون الرشيد في إحدى رحلاته ببلاد فارس، فغلبها الشوق، والحنين إلى بغداد وأهلها، فباحت بما يبوح به المغترب، وكتبت أنات شوقها على بيوت الشعر، أو الفساطيط، كما

[1]- أدب الغرباء، الخبر التاسع عشر، ص41،42.
[2]- أدب الغرباء ، الخبر الحادي والعشرون، ص42،43.

ذكرها أبو الفرج، فلما قرأها الرشيد إلى الري أخذ أخته عُلية. فلما صار بالمرج عملت شعرا وصاغت فيه لحنا من الرمل. وكتبت الأبيات ليلا على بعض الفساطيط في طريق الرشيد. فلما دخل إلى مضرب الحرم بصر به، فقرأه، وإذا هو:

وَمُغْتَرِبٌ بِالْمَرَجِ يَبْكِي لِشَجْوِهِ	**وَقَدْ غَابَ عَنْهُ الْمُسْعَدُونَ عَلَى الْحُبِّ**
إِذَا مَا أَتَاهُ الرَّكْبَ مِنْ نَحْوَ أَرْضِهِ	**تَنَشَّقِ يَسْتَشْفِي بِرَائِحَةِ الرَّكْبِ**

فلما قرأه علم أنه من فعل عُلية، وأنها قد اشتاقت إلى العراق، وإلى أهلها. فأمر بردها.[1]

س- الأدوات المستعملة في تذوين آثار الغربة

تعددت أدوات الكتابة التي استخدمها الغرباء في تسجيل خواطرهم بحسب تعدد أحوالهم وما أتيح لهم من وسائل، وأدوات الكتابة، فكتب أبو جعفر المنصور بالفحم على حائط قصر عبدوية كما ورد في الخبر الثاني: "وروي لنا عن إسحاق بن عبد الله قال: كنت في خدم أبي جعفر. فدخل قصر عبدويه وأنا معه. فقال: أعطني فحمة. فناولته، وكتب هذا الشعر على الحائط... وكتب بالفحم كذلك أحد الغرباء المجهولين فيما رواه أبو عبد الله الواسطي الشاعر المعروف بابن الآجري في الخبر الخامس إذ يحكي عن فتى غريب التقاه: " فلما كان في اليوم الرابع ودعني وأخذ فحمة وكتب على حائط البيت شعرا...واستخدم بعضهم الآلات الحادة لحفر كتابته على الصخور، كما في الخبر السادس والأربعين: "ويقال إنه وجد كتابة منقورة في جبل بناحية اصطخر هذه الكلمات: رب مغبوط وهي داؤه، ومرحوم من سقم هو شفاؤه، ومحمود علي رخاء بلاؤه.

والقلم والدواة من الأدوات التي استخدمها الغرباء، ففي الخبر السادس والخمسين روى أحد شيوخ البصرة قصة لقائه بفتى غريب عليه أطمار باليه، ومعه دواة وقلم، فلما استنكر عليه الشيخ حاله دار بينها حاله دار بينهما هذا الحوار: " يا فتى، لم قد رضيت لنفسك، مع حسنك وجمالك، بهذا الشقاء؟ فنظر إلي نظر متعجب، ثم قال: شقائي بهذا، أعزك الله،

[1]- المصدر نفسه ، الخبر الثاني والثلاثون، ص52.

أحلى طعما وأحمد عاقبة، في الأولى والآخرة، من تنعمك. فقلت: وما الدليل على قولك؟ قال: لأنك تذلّ، ولا أذلّ، وتخدم ولا أخدم ولا أخدم. وتطمعُ ولا أطمع. وأغدو وأروح خلي البال قليل الاشتغال، وصاحب السير– فضلا عنك – في الأهوال. ثم قام فكتب على ساج العبارة بالقلم الذي كان في يده هذين البيتين :

أُساءلُ عن حالي ويرثي لمنظري	**حبيبي، وهاذا في هواك قليل**
سأصبرُ حتى ترعوي وترقّ لي	**وينهج من طُرُق الوصالِ سبيلُ**[1]

ومضى وتركني.

ش– أماكن حوت آثار الكتابة

تعددت أشكال الكتابة وأماكنها بتعدد الفضاءات التي حلق فيها الغرباء محررين مشاعرهم من أسر الذات إلى رحابة المطلق، وكانت الحوائط بأشكالها المختلفة من أكثر المنصات احتضانا لبوح الغرباء، لا سيما حوائط دور العبادة على اختلافها، حيث يخلو الغريب بذاته، وينقطع عن أسباب الدنيا، ويقترب من ربه. فتفيض روحه بمكنونها في حالة من حالات البوح الصادق، فرأينا منهم من كتب على حائط المسجد الحرام كما في الخبر الحادي والستين، ومنهم من كتب على فناء المسجد الجامع لإحدى المدن كما في الخبر التاسع، فضلا عن أربعة أخبار أخرى كتب فيها الغرباء على حوائط المساجد[2]، ومنهم من كتب على حائط كنيسة كما ورد في أربعة أخبار ذكرها أبو الفرج[3]، دير كما في الخبر الأربعين.

وتعد المقابر خلوة أخرى يستشعر فيها الغريب ضيقه بالدنيا ودنو أجله، فيكتب على حائط المقبرة ما يجوب بخاطره تجاه الدنيا، كما في الخبرين: الحادي عشر، والعشرين، ويوضح الخبر التاسع والثلاثون أن الكتابة على ألواح القبور من الأمور المعتادة والشائعة،

[1]- أدب الغرباء، ص75.
[2]- أدب الغرباء، ص32،33،64،72،74.
[3]- المصدر نفسه، ص23،34،36،65.

كما يوضح حديث الأصمعي في الخبر التاسع والثلاثين، يقول أبو الفرج: "حدثني أبو عمر يحيى بن عمر، قال: حدثني أبو مسلم عن الأصمعي قال: قرأت على الألواح التي على القبور فلم أر كبيتين استخرجتهما من لوح وهما:

مُقِيمٌ إِلَى أَنْ يَبْعَثَ اللهُ خَلْقِهِ	**لِقَاؤُكَ لَا يَرْجَى وَأَنْتَ قَرِيبُ**
تَزِيدُ بَلَى فِي كُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةُ	**وَتُنْسَى كَمَا تَسَلَّى وَأَنْتَ حَبِيبُ** [1]

وهناك من كتب على حائط بستان كما في الخبر الثاني والسبعين، وبعضهم كتب على حائط قصر كما في الخبر الثاني، والخبر الثالث والعشرين، وكثيرا ما يكتب الغرباء على حوائط البيوت التي دخلوها حيث أورد أبو الفرج تسعة عشر خبرا لكتابات على حوائط البيوت.[2]

وكما كتب الغرباء على حوائط البيوت كتبوا كذلك على أبوابها وعلى أبواب المدن، وقد أورد أبو الفرج خمسة أخبار للكتابة على الأبواب[3]. وكتبوا على أجزاء من خشب المركب بوصفها وسيلة السفر عبر الرحلة البحرية، و أداة النجاة من الغرق كما في الخبرين السادس والخمسين، والتاسع والستين.

ويعد الحجر من عناصر الطبيعة التي احتضنت مشاعر الغرباء، وحفروا عليه مشاعرهم الغائرة في صدورهم، فلانت لهم الأحجار وأحالوها إلى قلوب نابضة بأحاسيسهم على مر الزمن، وقد حكى أبو الفرج اثنا عشر خبرا كتب فيها الغرباء على الحجر.[4]

واتخذ الغرباء من منارة الإسكندرية منصة للإعلان عن أنفسهم، وحفر وجداناتهم في ذاكرة التاريخ كما يوضح الخبر الثامن، ففي أعلاها موضع تتزاحم فيه خطوط الغرباء منذ

[1]- المصدر نفسه ، ص58.
[2]- المصدر نفسه ، ص38،43،45،47،51،54،56،59،60،62،64،76،80،82،84،86،88،94،99.
[3]- المصدر نفسه، ص41،60،64،70،71.
[4]- أدب الغرباء، ص30،39،42،51،55،63،69،72،87،93،97،98.

القدم، ويحرص كل غريب على أن يجعل لنفسه موضعا بين الغرباء يخطه بيده، ليكون له أثر باق على مر الزمن.

ومن المفارقات أن نجد الشجر صنوا للحجر في حفظ خلجات الغرباء، وإذاعتها على الناس بعد أن كانت حبيسة صدورهم، وكأن الطبيعة بكافة مكوناتها، الجامدة والحية، تأسى لحال الغريب وتؤازره، فقد كتب بعضهم على السرح "الشجرة الطويلة العظيمة"، يخاطبها ويستنطقها ويدعو لها بالسقيا ويبوح لها بتباريح الهوى، وعاد ليجد من يرد عليه بالكتابة كذلك على الشجرة ذاتها، يقول أبو الفرج: "خرج عبد الله بن جعفر متنزها، فأدركه المقيل فقال تحت شجر. فلما أراد الركوب كتب على الشجرة:

خَبِّرينَا خُصِّصْتِ يا سُرِحَ بالِغَي	**ث بصِدْقٍ ، وَالصِّدْقُ فِيه شِفاءَ**
هَلْ يَمُوتُ الْمُحِبُّ مِنْ أَلَمْ الْحُبَّ	**ب وَهَلْ يَنْفَعُ الْمُحِبُّ اللِّقَاءَ**

ثم ركب متنزها، فرجع فقال تحتها، وإذا أسفل كتابته مكتوب:

إِنَّ جَهْلًا سُؤَالُكَ السَّرَحِ عَمَّا	**لَيْسَ يَوْمًا عَلَيكَ فِيه خَفَاءَ**
لَيْسَ لِلْعَاشِقِ الْمُحِبِّ مِنَ الْعَيْشِ	**سِوَى مَنْظَرِ الْحَبيبِ دَواءَ** [1]

3. المبحث الثالث: الخصائص الفنية و الموضوعية

أ- الخصائص الأسلوبية

تعددت الظواهر الفنية في أدب الغرباء من خلال الأخبار المروية عن نقوشهم وكتاباتهم، شعرا كانت، أو نثرا، وإن كان النثر يمثل قدرا يسيرا بالقياس إلى الشعر، ولنحاول فيما يلي تدبر آثار الغرباء، بغية استجلاء بعض الخصائص الفنية.

أ.1- الخصائص الأسلوبية لنثر الغرباء:

[1]- المصدر نفسه، الخبر السادس، ص28.

مع غلبة القالب الشعري على أدب الغرباء إلا أنه يمكننا استخلاص بعض السمات الأسلوبية لما وقع بين أيدينا من آثارهم النثرية، فالغالبية العظمى من أخبارهم يأتي شعرا، فضلا عن السياق السردي للخبر، وبعض أخبارهم يأتي مزيجا من الشعر والنثر، والقليل منها يأتي نثرا خالصا. والنوعان الأخيران من الأخبار هما محل الدراسة فيما يخص الآثار النثرية.

فمن الأخبار التي مزج فيها الغرباء بين الشعر والنثر قول أبي الفرج" :وحدَّثني أبو القاسم عيسى بن أحمد المنجّم قال : دخلتُ في طريقي إلى سيف الدولة الرقَّة، فنزلت بالقصر الأبيض، وآثار الرشيد به باقية. فخرجتُ أطوف ببساتينها وأبنيتها .فلما حصلتُ بالقصر الأبيض رأيتُ على بقيَّة جدار منه مكتوباً :حضر عبد الله بن عبد الله، ولخطبٍ ما كتمتُ.

نفسي وعمَّيتُ بين الأسماء اسمي، في سنة خمس وثلاث مائة وهو يقول: سبحان من ألهم الصبر في البليّة، وحلم عن عقوبة أهل الظلم والجبريّة. إخوتي، ما أذلَّ الغريب وإن كان في صيانة، وأشجى قلبَ المُفارق وإن أَمِن الخيانة، وأمور الدنيا عجيبة، والأعمار فيها قريبة:

وذو اللبّ لا يلوي عليها بطَرْفة	**ولا يقتنيها دار مُكثٍ ولا بقا**
تأمَّلْ ترى بالقصر خلقاً تحسّه	**خلا بعد عزٍّ كان، في الجوِّ قد رقا**
وأمرٌ ونـهيٌ في البلاد ودولةٌ	**كأنْ لم يكن فيه ، وكان به الشقا**[1]

ومنها كذلك ما قرأه المتوكل في الكنيسة: "إذ لمح كتابةً على حائط الكنيسة، فقربنا من ذلك فإذا هو :حضرَ الغريبُ المشرَّدُ الحريب وهو يقول :شُتِّتَ شملي بعد الأُلفة، وشقيَ جسمي بعد الكلفة، ومشيتُ من العراق إلى هذا الرواق، وارتحلتُ عنه في ذي الحجّة من سنة إحدى ومائتين، وأنا أقول:

آلَ أمْرُي إِلَى أحْسَنِ الْأمُـورِ	**وَتُبُدِّلْتِ كُرْبَة بِسُرُورِ**
وَاِعْتَرَتْنِي مِنَ الزّمانِ خُطوبً	**تَتَبَارَيْ فِي هَتِكَةِ الْمَسْتُورِ**
نَفْسُ صَبْرًا لِحادِثَاتِ اللَّيَـالِي	**كُلُّ شَيْءٍ يُذِلُّ لِلْمَقْدُورِ**[2]

[1]- أدب الغرباء، الخبر السابع والثلاثون، ص56،57.

[2]- المصدر نفسه، الخبر الحادي والخمسون، ص65، 66.

ومن الأخبار النثرية الخاصة، قول أبي الفرج: "ويقال إنه وجد كتابة منقورة في جبل بناحية اصطخر هذه الكلمات: رب مغبوط بنعمة وهي داؤه، ومرحوم من سقم هو شفاؤه، ومحمود علي رخاء هو بلاؤه."[1]

وما أقرب تلك المفارقة التي عبر عنها الغريب بقول المتنبي:

مَاذَا لَقِيتِ مِنَ الدُّنْيا وَأَعْجِبُهُ أَنِّي بِمَا أَنَا بِكَ مِنْه مَحْسُودَ [2]

ومن الأخبار النثرية الموجزة قول أبي الفرج: "وحكي عن سويد بن جعفر الكوفي قال: قرأت على منقور على باب الحيرة : من يعمل اليوم لدار البقاء يجزيه مولاه غداة اللقاء. فاجتهد اليوم بخس التقى تنج به شر دار الشقا".[3]

ويلاحظ أن كتابات الغرباء النثرية تكاد تتفق في أسلوبها مع طريقة عبد الحميد بن يحي الكاتب رائد مدرسة فن الترسل الصناعي، حيث إيثار الجمل القصيرة، واستخدام الصنعة اللفظية في غير تكلف يذهب برواء المعنى، ففيها السجع والازدواج والتوازن القائم على تعادل الفقرات. وتختلف كتابات الغرباء عن أسلوب عبد الحميد الكاتب في كون الأخير يميل إلى الإطناب بينما تتسم كتاباتهم بالإيجاز، لضيق المساحة المتاحة لهم، ولاقتراب عباراتهم من سياق الحكمة أحيانا، مما يحتم عليهم الإيجاز.

بل إن بعض كتاباتهم بدت فيها ملامح القريحة الأدبية المقتدرة في الصنعة، من حيث تتبع أدق أنواع السجع، إذ لا يعنى فقط بفواصل الجمل، بل يتعداها إلى بقية مفردات الجملة، ليحدث التوازن بين غالبية مفردات الجمل وزنا ورويا، وذلك كما في المثال المذكور سابقا: "رب مغبوطة بنعمة وهي داؤه، ومرحوم من سقم هو شفاؤه، ومحمود علي رخاء هو بلاؤه"، فالكلمات المتقابلة في بدايات الجمل الثلاث: "مغبوطة، ومرحوم، ومحمود" اتفقت وزنا،

[1]- المصدر نفسه، الخبر السادس والأربعون، ص63.
[2]- التبيان في شرح الديوان، شرح أبي البقاء العسكري، ديوان أبي الطيب المتنبي،ت، تحقيق مصطفى السقا، دار المعرفة بيروت1978،ج2، ص40.
[3]- أدب الغرباء ، الخبر السابع والأربعون، ص64.

وكذلك الكلمات: "هي، وهو، وهو" اتفقت وزنا، بينما اتفقت الفاصلتان: "شفاؤه، ولاؤه" وزنا ورويا، واتفقت معهما الفاصلة الثالثة "داؤه" رويا دون الوزن.

أ.2- الخصائص الفنية لشعر الغرباء

إن طبيعة التجربة الشعورية لغرباء الشعراء تفرض على الشاعر تكثيف شعوره في كلمات موجزة أكثر ما تكون وضوحا، وأشد ما تكون صدقا، وأعمق ما تكون عاطفة وانفعالا، وهذا مجال المقطوعة الشعرية المحدودة الأبيات، والتي تعين الشاعر على استقصاء لحظة الشعور، لكونها تعبر عن خاطرة واجدة تلح على كاتبها فيرسلها في شكل دفقة شعورية موجزة لا مجال فيها للاحتشاد في ضروب الوصف، والاحتفال بفنون البديع، إلا ما جاء عفو الخاطر واقتضاه المعنى.

والمقطوعة الشعرية ظاهرة شائعة في الشعر العباسي بمختلف أغراضه، "وأنت إذا تصفحت دواوين الشعراء العباسيين أو طالعت أخبارهم أدركت أن ما قالوه من مقطعات يشغل حيزا كبيرا مما خلفوه من أشعار. فإذا تأملت هذه المقطعات أدركت أنهم تناولوا فيها كل آفاق التجربة الشعرية التي حلقوا فيها، من الدعابة الهازلة والتحامق والمجون إلى النسيب والغزل، إلى الخمريات والزهريات، إلى العتاب والهجاء والرثاء، إلى الرسائل الإخوانية. ومعنى هذا أن شكل المقطوعة الشعرية القصيرة قد صار العصر العباسي إطارا فنيا له وزنه وله خطره في شعر ذلك العصر العباسي إطار فنيا له وزنه وله خطره في شعر ذلك العصر، لأنه كان استجابة لذوق العصر من جهة، وتحقيقا لشعبية الشعر وسرعة تناقله ودورانه على ألسن من جهة أخرى."[1]

وقد استوقفتنا أدب الغرباء ظاهرتان فنيتان، إحداهما ظاهرة فنية نثرية بالأساس، إلا أن سمة الإيجاز الغالبة على شعر الغرباء نقلتها من حيز النثر إلى الفضاء الشعري مع مزجها

[1]- د.عز الدين إسماعيل، في الشعر العباسي الرؤية والفن ، ط ، المكتبة الأكاديمية،القاهرة، الطبعة الأولى،1994م، ص395، 396.

بنتف من الكلمات المنثورة، وهي "التوقيعات الشعرية" أو ما أسميناه "حوريات الغرباء". والأخرى ممثلة في النزعة القصصية في بعض أخبار الغرباء مع تنوع مشارب تلك النزعة واختلاف مراميها. وفيما يلي عرض لكلتا الظاهرتين.

أ.1.2- الحواريات وسيلة تواصل الغرباء

ومن الظواهر الفنية اللافتة للانتباه في أدب الغرباء تلك الحواريات التي يسجلها الغرباء على الحوائط ، أو الأحجار ، أو الأشجار، أو غيرها، لكنها حواريات مختلفة في طابعها عن مغزى الحوار المعتاد، الذي يقع عادة بين طرفين يتجاذبان الأفكار، ويرد كل منهما على الآخر، بينما حواريات الغرباء أشبه ما تكون بفن التوقيعات المعروف في الأدب العربي، ذلك الكلام البليغ الموجز الذي يكتبه الخليفة ، أو ولي الأمر أسفل المكاتبات الواردة إليه، والمتضمنة لشكوى ، أو رجاء أو طلب إبداء الرأي في أمر من الأمور، وقد يأتي في صورة آية قرآنية ، أو بيت من الشعر، أو مثل ، أو غير ذلك. فكثيرا ما نرى غريبا يكتب أثرا ويمضي، ويأتي غريب آخر ليكتب تعليقا على حلقة الوصل بين الغرباء بعضهم البعض، وبينهم وبين طوائف المجتمع الأخرى.

وتعد منارة الإسكندرية مقصدا للغرباء، حيث يحرص كل غريب على ألا يغادر المكان دون أن يحفر اسمه في ذاكرة التاريخ عبر ذلك الأثر الذي يتركه على المنارة، وذلك فيما رواه أبو الفرج عن رجل من أهل الشام قال: "اجتزت بمنارة الإسكندرية فدخلته لأرى عجيب بنائها وما أسمع من صفتها فإني لأطوف فيها فمررت بموضع في أعلاها فيه خطوط الغرباء والمجتازين قديمة وحديثة. وإذا في جملة ذلك موضع في أعلاها مكتوب بحبر بين: يقول محمد بن عبد الصمد: وصلت إلى هذا الموضع في سنة سبعين ومائتين. وصلت إليه بعد نصب وشقاء، وملاقاة ما لم أحسب أني ألقى. ولم أحب الانصراف عنه إلا بعد أن يكون لي به أثر، فقلت هذه الأبيات و كتبتها فيه:

شُرِّدْتِنِي نوائبَ الْأَيَّام وَرَمَتْنِي بِصَائِبَاتِ السِّهَام

فَرِّقْتْ بَيْنَ مِنْ أحِبُّ وَبَيْنَي	وَيْحُ قَلْبِي الْمُتَيَّم الْمُسْتَهَام
وَلَهَفٌ نَفسُي عَلَى زَمانٍ تَقْضَى	فَكَأنّي رَأيْتِهِ فِي الْمَنَام

وتحته مكتوب: يقول فلان بن فلان – وقد محا الاسمين طوال العهد – وصلت إلى هذا الموضع في رجب سنة ثلاث وثلاث مئة، على مثل حال المشرد عن إخوانه، المطرود عن أوطانه، وقرأت الأبيات:

أيُّه الْمُدَّعِي عَلَى الْأيَّام أنَّ	رُمَّتَهُ بِصَائِبَاتِ السِّهَام
خُفَّ مِنَ اللهِ وَاُعْتَزِلَ كُلُّ زُورٍ	وَتَجْنِبُ مُوَافِقَ الْآلَام
فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْخلائقُ طُرًّا	وَهُوَ رُبَّ الْجَهُورِ وَالْأَعْوَامَ [1]

ففي الرواية السابقة حوار بين ثلاثة أطراف من الغرباء، لا يعرف أحدهم الآخر لكنهم يتناصحون ويتبادلون الخبرات غيبا، من قبيل التصبر والتسلي وتلاقح المشاعر والتجارب وتبادل الخبرات.

وفي حوارية أخرى نجد أحد الغرباء يشد على يد كل غريب، ويعظه بالتسلح بالصبر حتى يحين الظفر، فيرد عليه أحد الغرباء بما يشي عن أحول من اليأس وانقطاع الرجاء في كشف البلاء، لتكشف لنا الحوارية عن أحوال الغرباء المتفاوتة، ما بين اليأس والرجاء، وهي مشاعر تنتاب كل غريب، يقول أبو الفرج: "وحدثني أبو الحسن بن مقسم قال: اجتزت في طريقي إلى العراق بمدينة يقال لها ظفار. ودعتني الضرورة إلى المقام بها أسبوعا. فكنت في كل يوم أطوف أقطارها وأقصد من كان بها على مذهب الشافعي. فاجتزت يوما في قصر منها خراب، قديم البناء، فإذ على بابه الموضع في سنة أربع وثلاثمائة وهو يقول:

يا مِنْ أَلَحَّ عَلَيه الْهَمَّ وَالْفِكْرَ	وَغُيِّرْتِ حالَهُ الْأَيَّام وَالْغِير
أَمَّا سَمِعْتِ بِمَا قَدْ قِيَّلَ فِي مِثْلُ	عْدَ الإياس فَأيْنَ اللهُ وَالْقَدْرَ
نَمَّ لِلْخَطوبِ إِذا أَحْدَاثِهَا طَرَقَتِ	وَاُصْبُرْ فَقَدْ فَازَ أَقوَمُ لَهَا صَبَرُوا
وَكُلُّ ضَيِّقٍ سَيَأتِي بَعْدَه سَعَة	وَكُلُّ فَوِّتَ وَشْيُكَ بَعْدَه الظَفَرَ

[1]- أدب الغرباء، الخبر الثامن، ص30،31.

وتحته مكتوب بغير ذلك الحبر والحط: حضر القاسم بن زرعة الكرجي في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وقرأ الأبيات وهو يقول: لو كل من صبر أعقب الظفر، صبرت، ولكن نجد الصبر في العاجل يفني العمر. وما كان أولى لذي العقل موته وهو طفل، والسلام.[1]

وفي حالة من أحوال التناغم الوجداني بين الغرباء، يرسم لنا أحد الأخبار صورة تغلب عليها الغرائبية في تشكيل حالة من حالات التواصل الروحي بين الغرباء، يقول أبو الفرج: " حدثني فتى من أهل الموصل قال: كنت سائرا بالساحل في طريق مكة، وإني لفي بعض الطريق إذا سمعت صوتا – ولا أرى أحد – وهو يقول:

نَفسُي الْفِدَاءِ لِنَفسٍ كُلِّ غَريبً	**وَفِدَاءٌ كُلُّ مُفَارِقٍ لِحَبيبِ**
لَعِبْتِ بِهِ الْأَيَّامَ فِي تَصريفِهَا	**وَنَأتْ بِهِ عَنْ صَاحِبٍ وَقَرِيبِ**

فحفظت البيتين، ولما وصلت إلى جبل بالقرب من الموضع كتبتها على جانبه. ومضيت فأقمت بالرملة شهورا، وعدت فاجتزت بالموضع الذي كنت كتبتهما فيه، فإذا تحته مكتوب:

نَحْنُ نَفْدِيكَ يا ظَرِيفِ الْفَعَّالِ	**أَبَدًا بِالنُّفوسِ و الْأَمْوَالَ**
أَثْقَلْتَنَا الْأَبيَّاتِ بِالشّكْرِ حَتّى	**قَدْ ضِعْفْنَا عَنْ نَيْلِهِ بِمَقَالِ**
أَنَا مِمَّنْ نَأى وَفَارِقَهُ الإِل	**ف فَأَمْسَى مُغَيِّرُ الْأَحْوالِ**
وَلَعَلَّ الزّمانَ يَرْحَمُ ضِعْفِي	**فَتَعُودُ الْأَيَّامَ لِي بِالْوِصَالِ**

ولا أدري لمن الشعر الأول والثاني[2].

ولا تقتصر حواريات الغرباء على العربية وحدها، فهناك نقوش صخرية بلغة غير العربية، لكن أبا الفرج أثبت ترجمتها دون أن يحدد اللغة التي كتبت بها، إلا أن الرد كان عربيا، يقول أبو الفرج: "ووجد على جبل بنواحي ديار ثمود كتابة منقورة في الصخر تفسيرها: يا ابن آدم ما أظلمك لنفسك! ألا ترى إلى آثار الأولين، فتعتبر، وإلى عاقبة

[1]- أدب الغرباء، الخبر الثالث والأربعون، ص60،61.
[2]- أدب الغرباء ، الخبر الثالث و الخمسون، ص71،72.

المنذرين فتزدجر. وتحته مكتوب بخط عربي: بلى، كذا ينبغي. فعلم أن بعض السياج وذوي الغربة والأسفار قد بلغ به الدهر إلى ذلك الموضع فأجاب بما وجد".[1]

أ.2.2- اللمسة السردية (القصصية) في أدب الغرباء

من الخصائص الفنية التي أثرت كتاب أدب الغرباء تلك النزعة القصصية المتكررة في كثير من أخبار الكتاب، ما يعد تمهيدا لفن القصة القصيرة في الأدب العربي إن لم يكن تأسيسا له. ولعل توجه أبي الفرج لهذا اللون النثر يعد استجابة طبيعة لذوق العصر المترع بمستجدات الحضارة والتي وجهته إلى طابع السرعة والخفة في الأشكال الفنية المختلفة، وذلك بفعل انتقال الإنسان من نقاء البادية وما يتيحه من طول تأمل إلى زخم المدينة بتفاعلاتها المتسارعة، فظهرت الشعرية بدلا من القصائد الطوال، كما ظهر ذلك النوع من السرد القصير بدلا من الأساطير والسير الشعبية.

وثمة دافع خاص بالغرباء يثير فيهم رغبة الحكي والسرد، ذلك أن الغريب انفرد بذاته في غربته، حاملا في حناياها ذكرياته وهواجسه وأيامه وأحلامه وإخفاقاته وسقطاته وإنجازاته وبطولاته، فقرر أن يخرج بهذا الصراع الداخلي من حواره من الذات إلى الآخر، وهذا يفسر وجود بعض القصص التي تحمل الطابع الغرائبي الذي يجوب بخيال المغترب إلى عوالم أبعد من ذلك العالم الواقعي، فضلا عن بعض القصص التي تصور نزوات الغرباء وسقطاتهم ومنهم أبو الفرج ذاته. لذا كان الغرباء حريصين على معايشة الآخر لتجاربهم النفسية عبر لقطات شعورية من حياتهم التقطتها ذاكرتهم ووضعتها في إطار سردي ليتجاوب معها الآخر. ولنتوقف فيما يلي أمام بعض النماذج السردية للحظات شعورية متمايزة في حياة الغرباء ذات طوابع مختلفة، وذلك من قبيل التمثيل لا الحصر، إذ تضيق الدراسة عن الإحاطة التامة بالنماذج القصصية المسرودة في الكتاب كافتها.

[1]- المصدر نفسه ، الخبر السادس والستون، ص87،88.

ومن النماذج التي ذكرها أبو الفرج الأصفهاني في كتابه نجد:

✓ **نموذج القصة الغزلية**

بطل هذه القصة هو أبو الفرج الأصفهاني وصديقه الذي رافقه في إحدى رحلاته، وفتاة من فتيات النصارى، يقول أبو الفرج: "وخرجت أنا وأبو الفتح أحمد بن إبراهيم بن علي بن عيسى رحمه الله، ماضيين إلى دير الثعلب، في يوم من سنة خمس وخمسين وثلاث مئة للنزهة ومشاهدة اجتماع النصارى هناك، والشرب على نهر يزدجرد الذي يجري على باب هذا الدير. فبينا نحن نطوف الدير، ومعنا جماعة من أولاد الكتاب النصارى وأحداثهم، وإذا بفتاة كأنها الدينار المنقوش كما يقال، تتمايل وتتثني كغصن ريحان في نسيم شمال. فضربت بيدها إلى يد أبي الفتح وقالت: ياسيدي، تعال اقرأ هذا الشعر المكتوب على حائط بيت الشاهد. فمضينا معها، وبنا من السرور بها وبظرفها وملاحة منطقها ما الله به عالم. فلما دخلنا البيت كشفت عن ذراع كالفضة، وأومأت إلى الموضع، وإذا فيه مكتوب:

خَرَجَتْ يَوْمُ عِيدِهَا	**فِي ثِيابِ الرَّوَاهِبِ**
فسَبَتَ بِاخْتِيَالِهَا	**كُلُّ جاءٍ وَذاهِبَ**
لِشَقَائِي رَأَيْتِهَا	**يَوْمَ دَيْرِ الثَعَالِبِ**
تَتَهَادَى بِنِسْوَةٍ	**كَاعِبٍ فِي كَوَاعِبِ**
هِي فِيهِمْ كَأَنَّهَا الُ	**بَدْرِ بَيْنَ الْكَوَاكِبِ**

فقلنا لها: أنت والله المقصودة بمعنى هذه الأبيات. ولم نشك أنها كتبت الأبيات، ولم تفارقنا بقية يومنا. وقلت فيها هذه الأبيات، وأنشدتها إياها ففرحت:

مَرَّتْ بِنَا فِي الدَّيْرِ خمصانه	**سَاحِرَةَ النَّاظِرِ فَتَّانَة**
أَبْرِزُهَا الرُّهْبَانَ مِنْ خَدَرِهِ	**تُعْظِمُ الدَّيْرَ وَرُهْبَانَهُ**
مُرَّتْ بِنَا تَخْطرُ فِي مَشْيِهِ	**كَأَنَّمَا قَامَتْهَا بَانَهُ**
هَبَّتْ لَهَا رِيحٌ فَمَالَتْ بِهَا	**كَمَا تُثْنِي غُصْنَ رَيْحانِهِ**
فَتَيَّمْتِ قَلْبَي وَهَاجَتْ	**لَهُ أَحْزَانَهُ قَدَمًا وَأَشْجَانَهُ**

وحصل بينها وبين أبي الفتح عشرة بعد ذلك. ثم خرج إلى الشام وتوفي بها، ولا أعرف لها خبر بعد ذلك.[1]

فقد اتضحت في الخبر السابق معالم القص القصيرة، من حيث تحديد الزمان والمكان، والشخصيات محدودة العدد، وعددها في القصة ثلاث شخصيات، فضلا عن الاكتفاء بالإشارة إلى الأطراف الأخرى بقوله: " جماعة من أولاد النصارى"، لكونهم غير مؤثرين في تطور الحدث. كما استعان أبو الفرج بشعرية اللغة في الجانب السردي كمطلب من متطلبات التكثيف، خاصة فيما يتعلق بوصف الفتاة، حيث اعتمد على عنصر الصورة، ما يجنح بخيال المتلقي إلى أفق أرحب من مساحة السرد، وفي نهاية القصة استخدم أبو الفرج تقنية الاختزال الزمني ليختم قصته بنهاية مغلقة لبعض أشخاص القصة ومفتوحة للآخرين.

- ✓ **نموذج لقصص المغامرة**

ومن النماذج القصصية التي أوردها أبو الفرج ما طغى عليه طابع المغامرة، في قالب أشبه ما يكون بقصص الرحالة والمغامرين والجغرافيين الأوائل الذين اكتشفوا القارات والبحار والمدن، ومن ذلك قول أبي الفرج: "حدثني أبو الحسين بن الشلمغاني قال: كان بالبصرة شيخ من ذوي الهيئات، وممن دوخ البلاد وقطع عمره في الأسفار. وكان يحدثنا بكل عجيبة، ويتحفنا بكل غريبة. فحدثنا يوما قال: ركبت في البحر في بعض السنين، فأفضى بنا السير إلى موضع لا نعرفه ولا يعرفه المركب. وطرحنا الماء إلى جزيرة فيها قوم على صورة الناس إلا أنهم يتكلمون بكلام لا يفهم، ويأكلون من المأكل ما لم تجر به عادة الإنس. فاجتمعوا علينا، وأقبلوا يعجبون منا، وخفناهم على أنفسنا، واستشعرنا الهلاك من طمعهم في قلتنا مع كثرتهم، ثم توكلنا على الله عز وجل وخرجنا نطلب في تلك المدينة ما نأكله ونشربه. فوجدنا الطراميس من خبز الدخن ولحوما كثيرة لا ندري ما هي. فاشترينا من ذلك الخبز واللحم وأظنه من لحوم الحيتان، ولهم أنبذة لا ندري ما هي، يشربونها. ويضربون بطبل عظيم، له

[1]- أدب الغرباء، الخبر الثالث والعشرون، ص34،36.

في البحر دوي. فبينا أنا أطواف في تلك المدينة إذ بصرت بكتابة عربية على بابها، فتأملتها، فإذا هي: بسم الله الرحمن الرحيم. بسم الله خالق الخلق، وصاحب الرزق. ما أعجب قصتي وأعظم محنتي، أفضتني الخطوب وقصدتني النكوب حتى بلغت هذا الموضع المهيب، ولو كان للبعد غاية هي أسحق من هذا المحل لبلغني إليها ولم يقنع إلا بها. وتحت ذلك مكتوب:

مِنْ سُدَّةٍ لَا يُمَوِّتْ الْفَتَى	**وَلَكِنَّ لِمِيقَاتِهِ يُهْلِكُ**
فَسُبْحَانَ مَالِكَ مِنْ فِي السَّما	**وَالْأَرْضُ حَقًا وَلَا يَمْلِكْ**

فاجتهدت بالمسألة عن الرجل وحاله، فلم يفهم عني، ولا فهمت أحد منهم، وأقلعنا في عبر تلك الليلة، وسلم الله تعالى، وصرنا إلى بلاد اليمن.[1]

✓ **القصة العجائبية**

ذكر أبو الفرج خبرا عن أحد غرباء مصر خرج يقتفي أثر المطالب، وهي الكنوز التي تركها الملوك والسابقون ودفنوها في باطن الأرض، وقد خصص ابن إياس فصلا من فصول كتابه "نزهة الأمم في العجائب والحكم" عن تلك الدفائن عنوانه: "ذكر الدفائن والكنوز التي يسمونها أهل مصر المطالب" وجاء في كتابه نقلا عن المسعودي: "قال المسعودي: ولمصر أخبار عجيبة من الدفائن والبنيان، وما يوجد في الدفائن من ذخائر الملوك التي استودعوها تحت الأرض وغيرها وقد أثبتنا جميع ذلك في كتبنا.[2]

ولعل الصلة الوثيقة بين الاغتراب والسعي خلف المجهول ما جعلت أبا الفرج يضمن كتابه خبرا لأحد الغرباء خرج باحثا عن المطالب، وقد واجهته في رحلته أحداث مثيرة أضفت عليها جوا من الغرائبية والإثارة، يقول أبو الفرج: "حدثني أبو محمد حمزة بن القاسم قال: حدثني رجل من أهل الفسطاط قال: كنت ممن يدرس كتب المطالب ويقفو آثارها. ويسافر إلى مواضعها، أنا وجماعة من أهل مصر. فوقع إلينا في بعض الكتب خبر مطلب عظيم

[1]- أدب الغرباء، الخبر الثامن عشر، ص40،41.
[2]- نزهة الأمم في العجائب والحكم، ابن إياس، ت، د، زينهم محمد عزب، الناشر، مكتبة مدبولي، ص60.

الشأن في بلاد اليونانية، بينه وبين مصر مسيرة ثلاثة أيام في طريق غير مسلوك. فأخذنا صفة وتزودنا وسرنا بين آكام وجبال ورمال خفناها، حتى إذا مضت ثلاثة أيام أشرفنا على سور عظيم منقور من حجر أبيض كالثلج فيه تلميع أسود كالجنازير التي تكون على السور، فكبرنا الله جل اسمه وحمدناه. فلما قربنا من أحد أركان الحصن إذا عليه كتابة في بياض الحجر بسواد: بسم الله الرحمن الرحيم. يقول فلان بن فلان بن فلان: من وصل إلى هذا الموضع بعدي فليعجب من قصتي، وليرث لمحنتي، خرجت هاربا من الإملاق، وتضايق الأرزاق، فعدل بي عن السداد، وتهت في البلاد، بلغ بي الدهر إلى هذا القصر :

فيا ليت شعري متى ينقضي عنائي وتكشف عني المحن:

شَرِيدَا طَرِيدَا قَلِيلُ الْعَزَاءِ سَحِيقُ الْمَحَلِّ بِعِيدِ الْوَطَنِ

فاستطرقنا أن تكون الغربة بلغت إنسانا إلى ذلك المكان. ثم درنا حول السور نطلب الباب، وإذا هو قد خفي علينا من نسج الرياح عليه الغبرة والقتام، ثم بان لنا، فلم نزل نكشف عنه حتى ظهر قفله وعتبته، وإذا هما مصراعان من جرع عليهما قفل ذهب عظيم، وإذا على الباب مكتوب:

قَدْ بَنَيْنَا وَسَوْفَ نَفْنَى وَيَبْقَى مَا بَنَيْنَا مَنْ بَعْدَنَا أَزْمَانًا
لَيْسَ يَبْقَى عَلَى الزَّمانِ سِوَى اللهِ الَّذِي لَا نَرَاهُ ، وَهُوَ يُرَانَا

فعجبنا من الشعر أيضا. ولم نزل نعمل الحيلة في القفل حتى فششناه وفتحنا المصراعين، فحين فعلنا ذلك سمعنا صيحة عظيمة هالتنا من داخل القصر، وجلبة أفزعتنا، ودويا حيرنا. فتوقفنا عن الدخول. ثم علمنا أن ذلك من عمل الجن. ثم رجعنا إلى صفة المطلب فوجدناها تدل على أن فيه طلسما مخوفا عظيم الشأن، فعلمنا أن الأمر من جهته. فدخلنا فإذا أبنية قديمة عظيمة، وآثار مهولة، وحيات أزلية. فتوقفنا، ثم لم نزل نتسلل إلى أن وصلنا إلى صحن في صدره قبة عظيمة عالية من صخر، يكون داخلها ثلاثين ذراعا في مثلها، في صدرها سرير من ذهب، عليه شخص ميت، حزرنا طوله خمسة عشر ذراعا. وإذا في وسط القبة شخص ماثل من نحاس، تام القامة بعينين تدوران في رأسه، قبيح المنظر،

وحركات في أطرافه، لاشك من يراه أنه حيوان. وإذا الصيحة من جهته، والدوي من تلك البقعة. وفي يده سيف مشهر لمنر أتم منه، وهو رافع بيده لا يعمل شيئا إلا أن يحرك عينيه، ويلتفت رأسه كالحذر. حتى إذا وضع أحدنا رجله على أرض القبة في سائر أقطارها، ووراء كما يفعل اللاعب بالمخراق، ضربا أسرع من الريح. فمهما قرب منه قده وأهلكه من سائر نواحيه. وإذا الكنز في أرض القبة تحت الطلسم، فلم نزل نعمل في قلعه كل حيلة بالرجم بالحجارة، وغير ذلك، وهو أحكم من هذه الحال، إلى أن قرب الليل، وخفنا الأفاعي التي في القصر، فخرجنا ولم نحظ إلا بقفل الذهب، فإنه كان فيه نحو خمس مئة مثقال. وإذا على صدر الطلسم كتابة يلوح فيها هذان البيتان :

تَعَبُ يَطَولُ لِطَامِعٍ فِي نَيْلِ مَا	**أمْسِيتِ جَامِعَة فُقَلَّ لَا تَطْمَعْ**
وَاسْتَرْزِقَ اللهُ الْعَلِيِّ مَكَانَهُ	**وَدْعِ التَّطَلّبِ لِلْمُطالِبِ وَاقْنَعْ**

وانصرفنا راجعين إلى مصر، وآليت أن لا أسافر في طلب الكنوز بعدها.[1]

ب- الخصائص الموضوعية :

من بين المواضيع التي انفرد بها أدب الغرباء نجد:

ب.1- الحنين إلى الوطن

وهو من أكثر المشاعر غلبة على الغرباء، وتصور الكثير من أخبار الغرباء توقهم إلى وطنهم، ومن ذلك ما قرأه أبو الفرج على حائط المسجد الجامع بإحدى قرى خرسان:

سَقَى اللهُ أيَّامُ التَّوَاصُلِ غَيْثُهُ	**وَرْدٍ إِلَى الْأَوْطانِ كُلُّ غَرِيبِ**
فَلَا حِيَرَ فِي دُنْيا بِغَيْرَ تَوَاصُلً	**وَلَا خَيْرَ فِي عَيْشٍ بِغَيْرَ حَبِيبَ** [2]

ولعل مشهد الطلل يطل برأسه على الصورة السابقة، حيث الدعاء بالسقيا لأيام الوصال، جريا على عادة الشعراء في الدعاء بالسقيا للطلل، وكأن الغريب يقف على طلل روحه، مستحضرا ذكرياته.

[1]- أدب الغرباء، الخبر الثاني والخمسون، ص68، ص71.
[2]- المصدر نفسه، الخبر التاسع عشر،ص42.

ومن الحنين إلى بغداد. ولها من السحر في نفس أهلها ما لها. ما قرأه بعضهم على صخرة بجزيرة قبرص: "يقول فلان بن فلان البغدادي: قذف بي الزمان إلى هذا المكان.

فَهَلْ نَحْوَ بَغْدادِ مُعَادِ مُعَادٍ فيشتقي	**مُشَوِّقُ وَيَحْظَى بالزِّيارَةِ زائِرَ ؟**
إِلَى اللهِ أَشْكُو لَا إِلَى النَّاسِ ، إِنَّه	**عَلَى كَشْفٍ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَمِّ قَادِرَ [1]**

ب.2- الشكوى والأسى

تعد الغربة رافدا رئيسا من روافد شعرا الشكوى، حيث يختلي الغريب مثقلا بهمومه وآلامه، فيبث شعره ما يجد من تباريح النوى، وتبوح نفسه بما يلاقي من الفراق، ويعتصر قلبه ألما من تبدل حاله من الغنى إلى الفقر، ومن ذلك ما كتبه أبو الفرج على حائط منزل سكنه بمدينة البصرة:

"الْحَمْدُ لِلهِ عَلَى مَا أرَى	**مِنْ ضَيَّعْتِي مَا بَيْنَ هَذا الْوَرَى**
أصَارَنِي الدَّهْرَ إِلَى حالَةِ	**يُعْدِمُ فِيهَا الضَّيْفُ عِنْدَي الْقِرَى**
بُدِّلْتِ مِنْ بَعْدَ الْغِنى حاجَة	**إِلَى كلابِ يَلْبَسُونَ الفرا**
أصْبَحَ أدُمُ السُّوقِ لِي ماكلا	**وَصَارَ خُبْزُ الْبَيْتِ خُبْزُ الشَّرِّ**
مِنْ بَعْدَ مَلِكِي مَنْزِلًا مُبْهِجَا	**سُكَّنْتِ بَيْتًا مِنْ بُيُوتِ الْكَرا**
فَكَيْفَ أَلْفَى ضَاحِكًا لَاهِيًا	**وَكَيْفَ أَحْظَى بِلَذِيذِ الْكَرَى**
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَرَى	**وَانْقُطِعَ الْخُطَبُ وَزَالَ المرا [2]**

وقد تأتي الشكوى في سياق ساخر يثير في النفس حالة من الأسى لما آل إليه حال الغريب، وذلك كما ورد في القصة التالية: "وحدثني أحمد بن عبد الله بن علي قال: ذكروا أن أبا فلان المدني كان مبخلا، وكان يقرأ على مخلاة حماره وقت القضيم سبع مرات "قل هو الله أحد" ويعلقها على الحمار. فلم يلبث أن نفق الحمار. فدفنه وبنى عليه قبة كتب على حائطها:

ألا يا حما ا رً كان للحُمْر سابقاً	**فأصبح مصروماً على السيب في قبر**
جُزيتَ مع القتِّ الشعيرَ مُغَرْبلاً	**وأسكنك الرحمن في جنّة الحُمْر**

[1]- أدب الغرباء، الخبر الخامس عشر،ص38،39.

[2]- المصدر نفسه، الخبر الخامس العشرون، ص46.

فقيل له: وأين جنة الحمر؟ قال: قراح الرطبة. قال: ثم وجد بعد ذلك على حائط القبة مكتوبا هذين البيتين:

الحمدُ لله لا شريكَ له	**ماذا أرى من عجائب الزمنِ**
إنْ كان هذا الحمار في كفنِ	**وقبَّةٍ، إنّني بلا كَفَنِ**

فعلم أن بعض الغرباء المنقطع به، كتبها.[1]

وقد تمثل الشكوى حالة من حالات مراجعة الذات، فيقف المغترب مع نفسه يواجهها بما تثقله طموحاتها من وطأة الغربة وانقضاء العمر بعيدا عن أحبابه، ومن ذلك ما رواه أبو الفرج: "لما اجتاز الشيد في طريقه إلى خرسان أقام بحلوان أياما، ثم رحل فوجد بخط على حجر كان بالقرب منه:

حَتَّى مَتَى أنَا فِي حَلٍّ وَتَرْحَالً	**وَطُولُ سَعَي وَإِدْبَارً وَإِقْبالَ**
وَنَازِحُ الدَّارِ لَا أَنْفِكَ مُغْتَرِبً	**عَنِ الْأَحِبَّةِ لايدرون مَا حالِيُّ**
بِمَغْرِبِ الْأَرْضِ طَوْرًا ثُمَّ مَشْرِقِهَا	**لَا يَخْطَرْ الْمَوْتُ مِنْ حِرْصِي عَلَى بالِي**
وَلَوْ قَنِعْتِ أَتَانَي الرِّزْق فِي دعه	**إِنَّ الْقَنُوعَ الْغِنى ، لاكثرة الْمَالَ**

ب.3- الاسترحام

وقد يصل الغريب إلى حالة من اليأس تشعره بذنو الأجل وفقدان الأمل، فيلوذ إلى الاسترحام وطلب الدعاء لحاله، ومن ذلك ما وجده أبو الفرج مكتوبا بجامع الرصافة في مدينة السلام:

رُحِمَ اللهُ مِنْ دَعَا لِغَرِيبٍ	**مذنف قَدْ جُفَاهُ كُلُّ حَبيبِ**
وَرَمَاهُ الزَّمانَ مِنْ كُلُّ قُطَرٍ	**فَهُوَ لَاشِكَ مَيْتً عَنْ قَرِيبِ** [2]

ب.4- الاستعلاء

ونجد حس الاستعلاء في طائفة من آثار الغرباء، ولعلهم بذلك الاستعلاء يشيعون في أنفسهم جوا من الدفء ليذيب صقيع الغربة، أو يغرسون نبتة مخضرة في صحراء حياتهم،

[1]- أدب الغرباء، الخبر السابع، ص29،30.
[2]- المصدر نفسه ، الخبر الرابع عشر، ص36،37.

ومن ذلك ما كان مكتوبا على أحد حوائط كنيسة الرها: "حضر فلان بن فلان وهو يقول: من إقبال ذي الفطنة، إذا ركبته المحنة انقطاع الحياة، وحضور الوفاة. وأشد العذاب تطاول الأعمار في الإدبار. وأنا القائل :

وَلِي هِمَّةُ أَدْنَى مَنَازِلِهَا السُّهَا	**وَنَفْسُ تَعَالَى فِي الْمَكَارِمِ وَالنُّهَى**
وَقَدْ كُنْتُ ذَا حالٍ بِمرو قَرِيبٍ	**فَبُلِغْتِ الْأَيَّامَ بِي بَيْعَةُ الرَّها**
وَلَوْ كُنْتُ مَعْرُوفًا بِهَا	**لَمْ أَقُمْ بِهَا وَلَكَنَّنِي أَصْبَحَتْ ذَا غُرْبَةً بِهَا**
وَمِنْ عَادَةِ الْأَيَّامِ إِبْعَادُ مُصْطَفى	**وَتَفْرِيقُ مَجْمُوعٌ وَتَنْغِيصُ مُشْتَهَى** [1]

ومن الاستعلاء المشوب بالأسى ما كتبه شاب عراقي مغترب على حائط المسجد الجامع بنيسابور، بعد أن عرض عليه أحدهم أن يقدم له المعونة، فشكره الشاب، ووجد مكتوبا مكانه:

لَوْ مَاتَتْ النَّفْسُ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ كَمَدٍ	**لَمَّا شَكَوْتِ الَّذِي أَلْقى إِلَى أحَدِ**
ياليتني كُنْتِ أَدْرِّي مَا الَّذِي صُنِعْتِ	**بَعْدَي الْحوادِثَ بِالْأَهْلَيْنِ وَالْولدِ**
وَبِالْحَبيبِ الَّذِي وَدَعَتَهُ فَبَكَى	**وَقَالَ : مَا دَارٌ هَذَا مِنْكَ فِي خُلْدِي**
وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمَ أَنَّ الْبَيْنَ مُقْتَرِبً	**مَا كُنْتُ أُصْغِي إِلَى عُذْرٍ وَلَا فِنْدَ**

ولم ير له أثر بعدها.[2]

ب.5- الحكمة

رغم قسوة الغربة ووقعها المؤرق على النفس إلا أنها تصقل الغريب بخبرات جمة، فتكسب الشباب خبرة الشيب، فبقدر ما تكون الغربة أحد أوجاع الحياة، إلا أنها تثري خيال المغترب بما يحتشد في عقله من مفارقات عجيبة، وما يتجدد في نفسه من ذكريات سعيدة تداعب واقعا أليما، فتعمق بداخله حس المفارقة، وتكسبه القدرة على تعقل الأمور واستبطان

[1]- أدب الغرباء، الخبر الرابع عشر،ص36،37.
[2]- المصدر نفسه، الخبر الرابع الأربعون، ص62،63.

الحكمة من المواقف والأحداث، ولعل هذا يفسر دوران الحكمة في شعر الغرباء، ومن ذلك قول أحدهم:

وَلَيْسَ الرِّزْقُ عَنْ طَلَبِ التَّمَنِّي	**وَلَكِنَّ إلْقَ دَلْوِكَ فِي الدِّلاءِ**
تَجِيءُ بِمِلْئِهَا طَوْرًا وَطَوْرَا	**تَجِيءُ بِحَمْأةٍ وَقَلِيلُ مَاءِ** [1]

لقد تعلم الغرباء طبائع الدنيا المتقلبة، وخبروا حقيقتها المتغيرة، فلم يركنوا إليها، ولم يأنسوا بها، وفي هذا السياق يقول أبو الفرج: "وذكر سهل بن علي قال: حدثني داود بن رشيد قال: أخبرني الهيثم بن عدي قال: أصبت على صخرة ملساء بأرض العرب مكتوبا :

فَمِنْ حَمْدِ الدُّنْيا لِعَيِّ يُسْرِهِ	**فَسَوْفَ لَعَمْرُي عَنْ قَلِيلٍ يَلُومُهَا**
إِذَا أَدَبَّرْتِ كَانَتْ عَلَى الْمَرْءِ حَسْرَةٍ	**وَإِنَّ أَقَبِلْتِ كَانَتْ قَلِيلَا نَعِيمِهَا** [2]

ومن الحث على الزهد في الدنيا وعدم الإقبال عليها: "ويقال إنه قرئ على ميل بطريق....حرسها الله تعالى:

أَلَا يا طَالِبُ الدُّنْيا	**دَعْ الدُّنْيا لشانيكا**
فَمَا تَصْنَعُ بِالدُّنْيا	**وَظَلَّ الْمَيْلُ يكفيكا** [3]

ويرى المحقق أن المحذوف مكان النقاط قد تكون مكة المكرمة لدعائه لها.

ب.6- سمة الصبر

ويحاول الغرباء الترويح عن أنفسهم من وطأة الاغتراب، والتخلي عن الشكوى والألم وجلد الذات واستبدال التجلد بالعويل، روى أحدهم لأبي الفرج ما رآه مكتوبا على صخرة:

وَكُلُّ الْبِلادِ بِلادُ الْفَتَى وَلَيْسَ لِأَرْضَ إِلَيه نِسَبَ
قَالٌ : فَقُلْتِ : لَا يَمُوتَ صَاحِبٌ هَذَا الْبَيْتُ إِلّا غَرِيبًا.[4]

[1]- أدب الغرباء، الخبر التاسع عشر، ص42.
[2]- المصدر نفسه ، الخبر التاسع العشرون، ص51.
[3]- المصدر نفسه ، الخبر الثلاثون، ص51.
[4]- أدب الغرباء، الخبر السابع عشر، ص40.

ومن ذلك أيضا ما نقشه أحد الغرباء على صخرة: "حضر الممتحن بدهره، المتحير في أمره، وهو يقول:

صَبَرْتِ عَنِ اللَّذَّاتِ لَمَّا تَوَلَّتْ	**وَأُلْزِمْتِ نَفْسُي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتْ**
وَمَا الْمَرْءُ إلّا حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسُه	**فَإِنَّ أَطَعِمْتِ تَاقَتْ وَإِلّا تَسْلُتُ** [1]

ويتأسى بعضهم بمن دالت دولتهم وهجرت قصورهم وضاعت هيبتهم، ليروح عن نفسه ما يجده من ذل الاغتراب وشجو الفراق، فيقول: "حضر عبد الله بن عبد الله، ولحطب ما كتمت نفسي وعميت بين الأسماء اسمي، في سنة خمس وثلاث مائة وهو يقول: سبحان من ألهم الصبر في البلية، وحلم عن عقوبة أهل الظلم والجبرية. إخوتي، ما أذل الغريب وإن كان في صيانة، وأشجى قلب المفارق وإن أمن الخيانة، وأمور الدنيا عجيبة، والأعمار فيها قريبة:

وَذُو اللُّبَّ لَا يَلْوِيَ عَلَيهَا بِطُرْفَةٍ	**وَلَا يَقْتَنِيَهَا دَارَ مُكْثٍ وَلَا بَقَّا**
تَأْمُلُ تُرى بِالْقَصْرِ خَلْقًا تُحِسُّهُ	**خَلَّا بَعْدَ عِزٍّ كَانَ ، فِي الْجَوِّ قَدْ رَقَّا**
وَأَمْرُ وَنَهِي فِي الْبِلادِ وَدَوْلَةً	**كَأَنْ لَمْ يَكُنْ فِيه ، وَكَانَ بِهِ الشَّقَا** [2]

ومنهم من يذكر نفسه بقضاء الله النافذ، ليبث في نفسه السكينة بالرضا بالقدر المحتوم الذي ألقى به على أرض جزيرة غريبة لا يتكلم أهلها العربية، فلا يأنس بلسان، ولا يفصح عن بيان، ومن ذلك ما قرأه الشيخ كثير الأسفار على أرض مدينة بجزيرة غريبة: "فبينا أنا أطوف في تلك المدينة إذ بصرت بكتابة عربية على بابها، فتأملتها، فإذا هي: بسم الله الرحمن الرحيم. بسم الله خالق الخلق، وصاحب الرزق. ما أعجب قصتي وأعظم محنتي، أفضتني الخطوب وقصدتني النكوب حتى بلغت هذا الموضع المهيب، ولو كان للبعد غاية هي أسحق من هذا المحل لبلغني إليها ولم يقنع إلا بها. وتحت ذلك مكتوب:

مِنْ شِدَّةٍ لَا يُمَوِّتْ الْفَتَى	**وَلَكِنَّ لِمِيقَاتِهِ يُهْلِكُ**

[1]- المصدر نفسه، الخبر الخامس والثلاثون، ص55.

[2]- المصدر نفسه، الخبر السابع والثلاثون، ص56،57

فَسُبْحَانَ مَالِكَ مِنْ فِي السَّما	**وَالْأَرْضُ حَقًّا وَلَا يَمْلِكْ** [1]

ب.7- رثاء الذات

حينما يسيطر شعور اللاجدوى وتخيم النوائب على الغريب ويشعر بدنو أجله، فيبادر برثاء ذاته، لأنه لن يجد من يرثيه، فقد اغترب أحد شباب لعراق ببلاد الروم فكتب في مرض موته بيتين على حائط البيت الذي يسكنه وأوصى بكتابتهما على قبره، وهما:

تُعُسِّفْتِ طُوَّالَ السَّيْرِ فِي طَلَبِ الْغِنى	**فَأَدْرِكْنِي رَيْبَ الزَّمانِ كَمَا تُرى**
فَيَا لَيْتَ شِعْرَي عَنْ أَخُلَّاي هَلْ بَكَوْا	**لِفَقْدِي أَمْ مَا مِنْهُمْ مِنْ بِهِ دَرَى** [2]

ومن ذلك ما رثى به نفسه علي بن الجهم لما أصابته الجراحات في طريق الشام، إذا وجدوا مكتوبا على حائط البيت مات به:

يا رَحِمَتَا لِلْغَرِيبِ فِي الْبَلَدِ النا	**زِحْ مَاذَا بِنَفْسُه صَنْعًا**
فَارَقَ أَحْبابُهُ فَمَا اِنْتَفَعُوا	**بِالْعَيْشِ مِنْ بَعْدَه وَمَا اِنْتَفَعَا** [3]

ب.8- التشبيب

وحينما يفقد الغريب شبابه وتتسرب من أيامه، يأسى لفراق أحبابه الذين وهبوه الحياة من قبل، فتثور بداخله مشاعر الصبابة والجوى، ومن ذلك قول أبي الفرج: "قرأت أنا أيضا على حائط بستان على نهر الأبلة هاذين البيتين:

وَمَا زادُ قُرْبِ الدَّارِ إلّا صَبَابَةٌ	**إِلَيكَ ، وَلَكِنَّ الْمَزَارَ بَعيدُ**
فَلَا يُبْعِدْنَكَ اللهَ يا فَوْزِ إنني	**أَبَيْتُ وَقلبُي بِاللِّقَاءِ عَمِيدَ**

وتحته مكتوب: إن كان لك بخت ستفطن، وإن فطنت وتغافلت فما حيلتي؟[4]

ب.9- الامتنان

[1]- أدب الغرباء، الخبر الثامن عشر، ص41.
[2]- المصدر نفسه، الخبر الحادي والعشرون، ص43.
[3]- المصدر نفسه، الخبر الثاني والأربعون، ص60.
[4]- أدب الغرباء، الخبر الحادي والثلاثون، ص51،52.

ومن المشاعر النادرة للغرباء أن نجد أحدهم ممتنا لأرض الغربة، ومن ذلك ما وجد مكتوبا على حائط أحد قصور بني المهلب:

نَزَلْتِ عَلَى آل المهلب شَاتِيَا	**غَرِيبَا عَنِ الْأَوْطَانِ فِي زَمَنِ الْمَحَلِّ**
فَمَا زَالَ بِي إِكْرَامَهُمْ وَاِفْتِقَارُهُمْ	**وَبِرُهُمْ حَتَّى حُسِبْتُم أَهْلِيَّ** [1]

ومن الأكثر ندرة أن نجد أحدهم يأسى على فراق وطن الغربة ويأسف لعودته إلى وطنه، يقول أبو الفرج: "حدثني شيخ من أهلنا قال: قرأت على حائط خضراء روح بالبصرة مكتوبا بسواد: بسم الله الرحمن الرحيم. حضر فلان بن فلان السّاوي، وهو يقول: هربت من الإملاق والحسرة، فقذف بي الزمان إلى البصرة، فكانت أعظم البلدان بركة علي، كسبت بها مالا، وعقدت بها حالا، وآخيت فيها فتيانا، وحصلت من أهلها إخوانا، وقضى الله لغلبة نحسي عودي ورجوعي إلى سارة، فرحلت وأنا أقول:

أَعُزِّزَ عَلِيٌّ بِفِرْقَةٍ وَرَحِيلً	**عَنْ قُرْبِ مَحْبُوبٍ وَدَارُ خَلِيلُ**
وَاللهُ يَعْلَمُ أَنَنِي متحرق	**لِفِرَاقِكُمْ ذُو صَبْوَةٍ وَغَلِيلَ**
أَتُرى الزَّمانِ يُسِرُّنِي بِلِقَائِكُمْ	**بَعْدَ التَّفَرُّقِ وَالنَّوَى بِقَلِيلِ**

وإذا تحته مكتوب: بغير ذلك الخط: نعم، إن شاء الله.[2]

[1]- المصدر نفسه، الخبر الحادي و العشرون، ص44.

[2]- المصدر نفسه ، الخبر الثامن والستون، ص89.

خاتمة

خاتمة

وبعد هذه الرحلة الممتعة مع كتاب "أدب الغرباء" لأبي الفرج الأصفهاني، آن لنا أن نقطف بعض الثمار التي أفضت إليها الدراسة والتي نجملها فيما يلي :

– تفرد كتاب "أدب الغرباء" في موضوعه، حيث جمع فيه أبو الفرج شجو الغرباء ونبض قلوبهم من خلال كتاباتهم على الحوائط ، والأحجار، والأشجار، والأبواب، بما أتيح لهم من أدوات الكتابة كالفحم والنفش بالسكين وغيرهما.

– أتت الغالبية العظمى من آثار الغرباء شعرا فضلا عن السياق السردي للخبر، وأتت بعض أخبارهم مزيجا من الشعر والنثر، بينما أتى القليل منها نثرا خالصا.

– تتفق الكتابات النثرية للغرباء في أسلوبها مع طريقة عبد الحميد بن يحيى الكاتب رائد مدرسة الترسل الصناعي، حيث إيثار الجمل القصيرة، واستخدام الصنعة اللفظية في غير تكلف يذهب برواء المعنى، ففيها السجع ، والازدواج ، والتوازن القائم على تعادل الفقرات، وتختلف كتاباتهم عن أسلوب عبد الحميد الكاتب في كون الأخير يميل إلى الإطناب بينما تتسم كتابات الغرباء بالإيجاز، لضيق المساحة المتاحة لهم، ولاقتراب عباراتهم من سياق الحكمة أحيانا، مما يحتم عليهم الإيجاز.

– جاء شعر الغرباء في صورة مقطوعات شعرية، نظرا لما تقتضيه طبيعة التجربة الشعورية لغرباء الشعراء، إذ تفرض على الشاعر تكثيف شعوره في كلمات موجزة أكثر ما تكون وضوحا، وأشد ما تكون صدقا، وأعمق ما تكون عاطفة وانفعالا.

– اختصت آثار الغرباء بمجموعة من الموضوعات شكلت خلاصة تجاربهم الوجدانية، كالحنين إلى الوطن، والشكوى، والاسترحام، والاستعلاء، والحكمة، والتجلد، ورثاء الذات، والتشبيب، والامتنان، وغيرها من المواضيع الأخرى.

مثل الفضاء الخارجي حلقة تواصل للغرباء فيما بينهم، فكثيرا ما نرى غريبا يكتب أثرا ويمضى، ويأتي غريب آخر ليكتب تعليقا على ذلك الأثر شعرا ، أو نثرا، في المكان نفسه. ليكوّنوا ما أطلقنا عليه مجازا "التوقيعات الشعرية".

– التركيز على المقطوعات بدل من القصائد الطويلة بغرض تحول البادية إلى المدينة.

– ركز على القصة الواحدة لأن الغريب انفرد بذاته "حوار الداخلي".

– بالإضافة إلى الخصائص الفنية كالحوار والنزعة القصصية.

– حيث إنه كان لها "الغربة" الأثر الواضح في تغير مجرى الأدب وإضفاء عليه صبغة جديدة مخلفة بصماتها الواضحة.

– ورد الكتاب في مصادر التراث بعناوين مختلفة الصيغ، فسماه ابن النديم: "أدب الغرباء من أهل الفضل والأدب"، وورد عند الخطيب باسم: "آداب الغرباء"، وذكره ياقوت الحموي باسم " أدب الغرباء" مرة، و" أدباء الغرباء" مرة أخرى.

– قام صلاح المنجد بتحقيق الكتاب، وآثر اعتماد تسميته ابن النديم: " أدب الغرباء من أهل الفضل والآداب"، معللا لذلك بكونه معاصرا لأبي الفرج، لكنه اكتفى بصدرها فقط، ونشر الكتاب للمرة الأولى بدار الكتاب الجديد في بيروت عام 1972م، بعنوان " أدب الغرباء".

– حصل المحقق على نسخة فريدة ولعلها الوحيدة في مكتبات العالم كما جاء في كلامه. من مخطوطة " أدب الغرباء" للأصبهاني منحها إيه عميد الكلية كلية الإلهيات في طهران والمتخصص في الشعر العربي الفارسي.

– يعد كتاب " أدب الغرباء" المصدر الوحيد لكثير من الأشعار المثبتة فيه، نظرا لأنها لم تسمع من أفواه قائليها، ولم تسطر في بطون الكتب، وإنما خرجت من شرنقة وإنما ترجمة لخوالج الذات في فضاء الوجدان البشري ليتلقفها الجميع، ولم يسبق لأحد أن جمعها في مدونة واحدة، على ما أعتقد، كما فعل أبي الفرج الأصفهاني.

– أسهم الكتاب في تصحيح تاريخ وفاة أبي الفرج، إذ المتداول بين المؤرخين أنه توفي عام ست وخمسين وثلاثمائة، بينما شك ياقوت الحموي في هذا التاريخ مستشهدا بروايات من كتاب "أدب الغرباء" منها ذكر أبي الفرج لموت معز الدولة وتولية ابنه بختيار وكان ذلك سنة ست وخمسين وثلاثمائة، وذكر أبو الفرج أن ذلك الحدث كان في شبابه، مما يؤكد أنه توفي بعد سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، حيث إن أبا الفرج روى في كتابه حادثة وقعت في تلك السنة، ومن المحقق أن الكتاب دون بعد وقوع تلك الحادثة.

– أماط أبو الفرج في كتابه هذا اللثام عن وعي المبدع العربي بفن من فنون البشرية الأولى وهو فن الجداريات بأشكالها وأنواعها المبتكرة، إذ قامت الجداريات منذ أن عرفها الإنسان القديم بوظيفة توثيقية لكل ما يمر به في حياته اليومية، بينما انتقل المبدع العربي بالفن الجداري من طوره التوثيقي إلى طور الكتابة الإبداعية الذي ينم عن درجة من الرقي الفكري والحضاري، فضلا عن تعدد أماكن الكتابة وتنوع أدواتها وفق مقتضيات البيئة.

– حفر الأصفهاني، بعمله هذا وجدان المهمشين و المنسيين من الغرباء في ذاكرة التاريخ، فاستحال الهامش متنا، إذ حاول هؤلاء المهمشون أن يخرجوا إلى دائرة الضوء بجدب كافة أطراف المجتمع إلى عمق بوتقة شعورهم، وأتى أبو الفرج ليكلل جهدهم بالنجاح ويخصص لهم مصنفا يجذبهم من خلاله إلى مركز المتن، ليجعل لهم مكانا مميز في الذاكرة الثقافية العربية.

– ساوى أبو الفرج في حس الاغتراب بين الغرباء من المهمشين المجهولين، والأعلام المبرزين الذين أظهر لهم وجها لم يره الناس من قبل، ماجعله يدرجهم في صفوف المهمشين، حيث التهميش الوجداني حينما يجد المرء نفسه غريبا في محل ألفته، ما يولد شعورا باغتراب الذات الذي يفوق في قسوته غربة المكان.

– كان الدافع إلى تصنيف الكتاب حالة الاغتراب النفسي التي يقاسيها أبو الفرج، فحاول أن يتأسى بأضرابه من الغرباء الذين نزحوا عن ديارهم مخلفين وراءهم الأهل والخلان، حاملين من الأشجان ما تنوء عن حمله صدورهم، فباحوا بأسرارهم وأودعوا شجوهم جدران الحانات والبساتين والمساجد والمعابد والشجر والحجر.

– جمع أبو الفرج في كتابه ستة وسبعين خبرا، أخذها من عدة مصادر، وتلتقي جميعها في تصوير أحوال الغرباء، فبعضها كتابات قرأها بنفسه، وبعضها أخبار رويت له.

– كان أبو الفرج فيما روى له من أخبار حريصا على ذكر سند الرواية حتى يصل إلى مصدر الخبر، لكنه لم يجهد نفسه في التثبت من صحتها، كما لم يبد رأيه فيما جمع من أخبار، ولم يعقب عليها بشرح أو رفض أو قبول، حتى وإن غلبت على بعضها مسحة غرائبية، إذا أن هدفه من الكتاب رسم صورة كاملة لأحوال الغرباء كما صورتها آدابهم، ولم تكن غايته تاريخية ، أو توثيقية.

– تنوعت طوائف الغرباء في الكتاب، فهناك غرباء الملوك، وغرباء الشعراء، وغرباء المتصوفة، وغرباء النساء، فضلا عن مجهوليي الغرباء، وعلى رأس هولاء جميعا يأتي أبو الفرج نفسه.

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

أولا: المصادر :

أبو الفرج الأصبهاني، أدب الغرباء، ت.د صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد بيروت، لبنان، ط1، 1972م.

ثانيا: المراجع :

1- أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي، ط5، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،1967م.
2- أحمد مطر، المجموعة الشعرية، ط1، بيروت دار الحرية، 2011.
3- الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1945،ج1.
4- ابن إسحاق الهمداني، البلدان، ت. يوسف الهادي، بيروت، الطبعة الأولى، 1416ه، 1996م، ج1.
5- ابن إياس، نزهة الأمم في العجائب والحكم، تحقيق زينهم محمد عزب، الناشر، مكتبة مدبولي.
6- البخاري ، صحيح البخاري، شرح فتح الباري، كتاب الحدود، باب:البكران يجلدان ونيفيان،(162/12)، رقم (6832).
7- بركة بسام، يعقوب أميل،مي شيخا، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية.ط1987.
8- أبو البقاء العسكري، التبيان في شرح الديوان، ديوان أبي الطيب المتنبي، تحقيق مصطفى السقا، دار المعرفة، بيروت، 1978، ج2.
9- جميل بن معمر، الديوان، (ط بيروت)، دار بيروت للطباعة والنشر.

10- الجواهري إسماعيل بن حماد: الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، مادة غرب.

11- جوليا كريستيفا، الغريب بداخلنا، دار النشر فايارد، 1988.

12- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ت محمد شرف الذين يالتقايا، مكتبة المثنى، بغداد، 1941م.

13- حسن حماد، محمد حسن، الاغتراب عند إيريك فروم، بيروت،المؤسسة الجامعة لدراسات والنشر،1995.

14- حسن حماد، الإنسان المغترب عند اريك فروم، دار الكلمة، القاهرة، مصر،2005.

15- حسين المرصفي، الوسيلة الأدبية، ج2، إلى العلوم العربية حققه عبد العزيز الدسوقي، الهيئة المصرية العامة للكتب، 1875.

16- أبو حيان التوحيدي، الإشارات الإلهية،ت خميس حسن، دار آفاق للنشر والتوزيع 2017.

17- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

18- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

19- الداية محمد رضوان، في الأدب الأندلسي، دار الفكر، سورية، 2000.

20- رجب محمود:الاغتراب، منشأة المعارف المصرية، الإسكندرية، 1978،ج1.

21- رجب محمود، الاغتراب، سيرة ومصطلح، ط3، دار المعارف1119 كورنيش النيل –القاهرة، 1988.

22- الزبيدي السيد محمد مرتضى، تاج العروس من جوهر القاموس، مادة غرب، المطبعة الخيرية، مصر، 1306هـ مح1.

23- الزوزاني أبوعبد الله بن أحمد، شرح المعلقات العشر، دار الجيل لنشر والتوزيع، بيروت 1972، ط2.

24- ابن زيدون، ديوان ابن زيدون، ت يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، ط2، 1994.

25- أبو زيد،أحمد، الاغتراب مجلة عالم الفكر،ع1، مج،1979.

26- أبو زيد القريشي، جمهرة أشعار العرب، تحقيق محمد علي الهاشمي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان 1999/1/1.

27- سامي أحمد بسام، حركة الشعر الحديث في سوريا من خلال أعلامه،.

28- سناء خضر، النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين، دار الوفاء لطباعة والنشر، الإسكندرية، ط2000.

29- سهير عبد السلام: مفهوم الاغتراب عند هاربرت ماركيوز، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2003.

30- شوقي ضيف، البارودي رائد الشعر الحديث، دار المعارف، مصر 1964.

31- الشيخ ناصف اليازجي، العرف الطيب، شرح ديوان أبي الطيب، 2016.

32- صابر نور الدين، الاغتراب بين القيمة المعرفية والقيمة الجمالية، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، سوريا،ع ،2000.

33- الطاهر الجزائري، رسالة في الحنين في الأوطان، ط2، المطبعة السلفية، القاهرة1351هـ.

34- طاهر العتباني، مقال الغربة والاغتراب في الشعر العربي قديما وحديثا البحث 2018-12-25.

35- طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف، ،1974م- 137/2.

36- عبد النور جبور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين - بيروت - لبنان ط2، 1984.

37- عبيدة الشبلي، نزار قباني، ط13، بيروت1999م. مذكرة شعر الغربة عن الوطن بين القيم والحديث، دراسات في الأدب والفن22 حزيران/يونيو/2018، مركز حرمون للدرسات المعاصرة.

38- عتيق عبد العزيز، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية الطباعة والنشر، 1976، بيروت.

39- عدنان قاسم، الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر، دراسة نقدية في أصالة الشعر، ط1، المنشاة الشعبية للنشر.

40- عز الدين إسماعيل، في الشعر العباسي رؤية والفن، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1994م.

41- علي الجندي، عيون الشعر العربي القديم، دار غريب، مصر، 2000.

42- عمر الدقاق، كتاب الأمالي للقالى، دراسة واختيار، منشورات دار الشرق- ط1-1972.

43- عمرو بن بحر الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، ط2، دائر الرائد العربي، 1982.

44- عنترة بن شداد، ديوان عنترة، المعلقة، دار صادر، بيروت، باب الميم.

45- عيسى بلاط، بدر شاكر السياب، ط4، دار الشؤون، بغداد، 1971.

46- عيسى الناعوري، أدب المهجر، ط3، دار المعارف، مصر.

47- أبو فراس الحمداني، ديوان أبي فراس،2013.

48- أبو فراس، ديوان أبي فراس، دار الكتاب العربي، باب اللام.

49- ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، القاهرة، 1292هـ، ط1،ج2.

50- كمال الدين ابن العديم، الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتحري عن أبي العلاء، 2011/3/5م، للمكتبة الشاملة.

51- المتنبي أبو الطيب، ديوان المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، مصر،ج1.

52- محمد بن سهيل بن المرزبان الكرخي البغدادي، الحنين إلى الأوطان، ت. جليل العطية.

53- أبو محمد بن القاسم ابن الانباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، علق عليها ، ديحي مراد، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، 2004.

54- محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، المكتبة الأهلية للنشر والتوزيع، 2014.

55- المعري أبو العلاء، رسالة الغفران، ت. عائشة عبد الرحمان، دار الكتب المصرية.

56- ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب، مادة غرب.

57- مومنة حمزة عبد الرحمان عون، نحيب الذات وإشراقات الفن في أدب الغرباء للأصفهاني، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بالإسكندرية.

58- نجاح عطار، الجواهري في العيون من أشعاره، ط4، دار طلاس للطباعة والنشر، 1998م.

59- ابن النديم، الفهرست لأبي الفرج، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة بيروت، لبنان، ط2، 1997.

60- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ت. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج4، 1993م.

61- يحي الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي ط1، عمان دار مجلاوي، 2008.

62- يحي عبد الله: الاغتراب، دراسة تحليله لشخصية الطاهر بن جلول الروائية، دار فارس للنشر والتوزيع، ط1،عمان، 2005.

- المذكرات والرسائل:

63- حمة دحماني، ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكرياء، رسالة ماجستير جامعة منتوري، الجزائر، 2006.

64- مسلم مالك بعير الأسدي، لغة الشعر عند أحمد مطر، رسالة ماجستير، جامعة بابل، 2007م.

- المجلات والدوريات :

65- أحمد النجار، مقال جريدة شباب مصر،11 يونيو 2020م http://www.shbabmisr.com/t~146830

66- حديث ديني الموقع الرسمي لسماحة الشيخ الإمام ابن باز.والآجري في صفة الغرباء رقم 5 ص21.

67- حسان نزال، دنيا الوطن، حسان نزال، قباطية نشر 09 سبتمبر، وقفة مع الشعر الوطني عند فدوى طوقان، 2006م.

68- حسين جمعة، الاغتراب في حياة المعري وأدبه، مجلة جامعة دمشق، المجلد27، العدد الأول +الثاني2011، ص67.

69- عباس حسن الحاوي، مجلة أوراق ثقافية بيروت- لبنان، الغربة في الشعر العربي يوليو19-2019م

70- عباس حسن الحاوي، مجلة مرج أوراق ثقافية ،الغربة في الشعر العربي 20 فيفري، الموقع: issn2663-9416، 2020م.

71- عيسى سلمان درويش المعموري، محاضرة ،الغربة والحنين في الشعر الأندلسي،جامعة بابل 19-02-2018 http://www.uobabylon.edu.iq

72- أبو الفرج الأصفهاني، جريدة الرياض، الجمعة 17 صفر 1427هـ- 17 مارس ، العدد: 13780، 2006م.

73- قاسم أحمد عقلان، مقامات الولاية وأحوال الأولياء، ط1 دار زهران،عمان 2009م.

74- مجلة جامعة دمشق، المجلد26، العدد الثالث والرابع، 2010م.
75- مجلة التقني، المجلد السادس والعشرون، العدد: 6، 2013م
76- محمد جبور، العلاقة بين علم السياسة والعلوم الاجتماعية، مجلة عمون17-08-2019 https://www.ammonnews.net/article/477438
77- نزار قباني، شعر نزار قباني عن الغراف، مقالة سامر حمدان: 9 فبراير2016م.

- مواقع الكترونية:

78- الغربة والغرباء في ديوان الشعر العربي،د.جابر قميحة، دراسة منشورة على موقع رابطة أدباء الشام /ttps://www.aleqt.com/2017/03/24 article_115670.
79- شعبان أحمد بدير ،جدلية الاغتراب في الشعر الصوفي، دراسة منشورة، ديوان العرب، www.diwanalarab.com.
80- GRANDLAROUSSE ENCYLOPEDIQVEP
81- https://www.nafahat-tarik.com/2018/08/Al-Ghorba-Sufism.htmlhttp//www.alwarraq.com
82- http//www.altafsir.cqmرقم الحديث،1/3580.
83- https://www.aldiwan.net/poem11836.html
84- https://annabaa.org/arabic/authorsarticles/1711 مقال حيدر، الجراح مفاهيم السياسة ،شبكة النبأ.
85- http://ar.wikishia.net/view
86-

فهرس

المحتويات

فهرس المحتويات

1. العنـــوان	الصفحـــة
2. إهداء	
3. مقدمة.....	أ –ح
4. مدخل الغربة ظاهرة إنسانية.....	14

الفصل الأول : ظاهرة أدب الغربة بين القديم والحديث

1. المبحث الأول: مفهوم أدب الغربة..... 16
   - أ. الغربة لغة: 16
   - ب. الغربة في اللغة الأجنبية 18
   - ت. الغربة اصطلاحا..... 20
   - ث. الغربة عند الصوفية. 20
2. المبحث الثاني: نشأته وتطوره..... 21
3. المبحث الثالث: خصائصه ونماذجه 28
   - أ. غربة الأسر: 32
   - ب. الغربة النفسية. 35
   - ج. الغربة الاجتماعية : 35
   - د. الغربة السياسية : 36

الفصل الثاني: خصائص أدب الغربة في كتاب أدب الغرباء

1. المبحث الأول : التعريف بالمؤلف..... 45

2. المبحث الثاني : التعريف بالكتاب ومضمونه.....46
أ. الكتاب في شكل مخطوط :.....48
ب. مضمون الكتاب وأهميته.....50
ت. دوافع التأليف.....51
ث. الفكرة التي تبناها المؤلف : 52
ج. المصادر التي اعتمد عليها الكاتب في جمع أخباره.....54
ح. روايات نقلت شفاهة للأصفهاني.....58
خ. أكثر الفئات التي عانت الغربة ووقف عليها الكاتب في مؤلفه.....62
س. الأدوات المستعملة في تدوين آثار الغربة 72
ش. أماكن حوت أثار الغربة.....73
3. المبحث الثالث : الخصائص الفنية والموضوعية..... 77
أ. الخصائص الأسلوبية : 77
أ.1- الخصائص الأسلوبية نثر الغرباء.....77
أ.2- الخصائص الفنية لشعر الغرباء.....79
ب. الخصائص الموضوعية : 88
5. الخاتمة 97
6. قائمة المصادر والمراجع 102
7. فهرس المحتويات.....109

ملخص

الإنسان ابن بيئته يتأثر بها ويؤثر فيها، والأدب ترجمان هذا التأثر ولسان حاله و مقاله، هذا الأخير الذي ما انفك يساير روح عصره شدة ورخاء وكان لزاما على الشعراء والأدباء أن يسخروا هذا الأدب للتعبير عن مواقفهم وما خلج في صدورهم و إبداء آرائهم إزاء شعوبهم و أوطانهم في ظل ما يعتريهم نوائب الدهر ومسراته باعتبارهم علية المجتمع ومثقفوه.

وممن كان في الطليعة وتلقف المشعل وطوع هذه الوسيلة للدفاع عن فئة الغرباء نذكر أبي الفرج الأصفهاني محاولا إخراجهم من دائرة التهميش ووضعهم في مركزية المجتمع، بفكرة فائقة ذكية متفردة وأسلوب غاية في التشويق.

استعرضت في بحثي المتواضع هذا والمقسم إلى فصلين أحدها نظري والآخر تطبيقي يندرج تحت كل منهما ثلاثة مباحث، أما الفصل الأول فقد تناول الغربة كظاهرة إنسانية وضم مفهوم أدب الغربة، النشأة والتطور، خصائصه ونماذجه، بينما الفصل الثاني فَخُص بدراسة خصائص أدب الغرباء من كتاب أدب الغرباء وقد ضم التعريف بالمؤلف، التعريف بالكتاب ومضمونه، الخصائص الموضوعية والفنية، حيث خلصنا في ختام بحثنا إلى مجموعة من النتائج والتوصيات نحسب أنها تخدم القارئ والباحث على حد سواء وتكون مطية ونقطة انطلاق للبحث العلمي.

الكلمات المفتاحية: أدب الغربة، الغربة في الأدب، الغربة عن أبي الفرج الأصفهاني

Abstract

Man is the son of his environment, he influences on it and he is influenced by it, and literature translates this influence and it considered his tongue and essay, the latter, who has been keeping pace with the spirit of his time. It was incumbent upon poets and writers to make use of this literature to express their positions and what was left in their chests and expresses their opinions about their peoples and their homelands in light of what they suffer from the consequences of the age and its delights, with considering them the community nobles and its intellectuals.

And whoever was at the forefront and the gathering of the torch and the voluntary means of this method to defend the category of strangers, we mention AbiFaraj Al-Isfahani, trying to get them out of the marginalization circle and placing them in the centrality of society, with a super smart, unique idea and a very interesting method.

In this my humble research, I divided it into two chapters, one theoretical and the other applied. Three topics were discussed under each chapter. The first chapter dealt with alienation as a human phenomenon and included the concept of alienation literature, its origin, its development, its characteristics and models, while the second chapter was devoted to studying the characteristics of the literature of strangers from the book of literature of strangers The definition of the author, the definition of the book and its content, included the objective and technical characteristics. Where we concluded at the conclusion of our research a set of results and recommendations that we consider to serve both the reader and the researcher and are a fold and a starting point for scientific research.

Key words: alienation literature, alienation in literature, alienation from Abu al-Faraj al-Isfahani